سهير السمان

جنازة واحدة لموت كثير

رواية

الدار المصرية اللبنانية

جنازة واحدة لموت كثير

رواية

جنازة واحدة لموت كثير: رواية / سهير السمان .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2025.
208 ص؛ 20 سم.
تدمك: 9 - 524 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 2025/2223

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2025م

تصميم الغلاف الفنان: عمرو الكفراوي

الرواية الفائزة بمنحة مفرادات

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًّا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

سهير السمان

جنازة واحدة لموت كثير

روايـة

الدار المصرية اللبنانية

هذه المدافن أحلام أصحابِها

أنفاسي تتسارع وتسابِق دقات الساعة، أحاول أن أضبط إيقاعاتها، ولكنها تصارع مسامات جسدي، ولا أعرف ما الذي ينسحب معها. أطراف أصابعي كالثلج، أعتقد أنها تيبّست من أثر الكتابة الطويلة ليلة أمس، أو كان ذلك من أثر تلك اللمسات؟

يا ألله! هل أنا أحتضر؟ هل أموت دون أن يعرف أحد؟

إنها الثانية عشرة، هل الساعة توقفت أم أن الزمن توقف بي؟ زمني الآن هو العام الخامس عشر بعد الألفين. أتذكر أننا كنا قديمًا نتوقع أن الساعة ستقوم حين نبلغ الألفية الثالثة، لكننا عبرنا اليوم خمسة عشر عامًا دون أن تقوم الساعة، لكن على ما أعتقد أنني سأشهد قيام ساعتي الآن.

الساعة الثانية عشرة، وهناك ضوء مكتوم خلف ستائر النافذة، أهو ضوء الشارع أم أنها الشمس؟ اللون الأصفر الذي لم يتغير سوى في حدته، لكنه اليوم باهت قريب من خدَري الذي أعاني منه. بدأ هذا الخدر في كل تفاصيل حياتي، فلم أَعُد أبالي به، كل ما أفعله منذ سنوات هو استهلاك للوقت دون أن أضيف له شيئًا، ولا يمنحني شيئًا، والجديد الوحيد الذي غيّر حركة يومي المعتاد هو توقفه عند المنتصف. الزمن لا يتوقف، أنا من توقفت وسأترك الساعة كما هي، لأبدأ زمنًا لا عقارب فيه، هكذا أكون كائنًا بلا زمن. لماذا أهتم بذلك الآن، فأنا كائن بلا زمن منذ فترة طويلة، فليس مهمًا أن أشعر بحركة الساعة!

لكني وأنفاسي تعاود هدوءها قليلًا، ما زلت أفكِّر أن أنهض وأتأكد من هذا الضوء المختبئ خلف الستارة، وأقفل قطرات الحنفية الكسْلى التي تلقيني معها لجوف لا أعرف نهايته.

وما بال هذا الأثاث قد أصبح باليًا هكذا؟ لماذا لم أنتبه له من قبل؟ الجدران قد تشقق طلاؤها، وبعض رفوف المكتبة قد وقعت دون أن أوكّل نفسي بإصلاحها. أصبحت الصالة فقط هي مساحتي الوحيدة في هذا الكون، لم أَعُد أريد لعيني أن تنشغلا سوى بأشيائي المحيطة بي، وما أبقيتها إلا لإعادة الرؤية وترتيب الذكريات.

وهذه أوراقي أمامي، لا يزال معظمها أبيض، والبعض منها كنت قد خططته بما سأكتبه عنّا ولن يقرأه أحد، هكذا قررت قبل أن يفاجئني توقف الساعة. وظللت أكتب بين هذه الجدران في هذا المنزل الذي لم يكن لي سوى مرحلة انتقالية، دامت خمسًا وعشرين سنة.

أوراقنا التي قد تتحول إلى كائن حي بدلًا مني، حين تنبض بحبر أيامنا، تجرأت أخيرًا أن أكتب عنّا، لكن يبدو أنني لن أستطيع أن أكملها، فقد عادت إليّ تلك اللمسات التي بدأ بها القدر ليسطر مرحلة وجودنا معًا. هذه اللمسات أشعر بها الآن في هذه اللحظات الأخيرة لتضعني أمام عجزي حين تجاهلتها في الوقت الذي كانت هي الجسر الذي أوصلنا للحب، والذي تركته في وضع شبحي ليعذبنا، عجزت عن تأديته

واستسلمت للنهاية التي بدأتها باكرًا.

واليوم تنتهي هذه المرحلة، ليست بالنسبة لي فقط، بل للجميع. لكني أعرف مصير هذه الأوراق، وأدرك أنها ستعرف طريقها إليكِ لترويها بطريقتك، أو لتبعثي فيها الحياة التي انطفأت بيننا.

هل ستكتبين من خلال تلك اللمسات، أم أنكِ قد تحررتِ منها؟ دعيني أخمّن.. ستكتبينها بغضبك ولن تتركي لي مجالًا لأدافع فيه عن نفسي البائسة والقلِقة دائمًا، هذا ما كنت أراه في عينيكِ الغضتين دائمًا، اللتين جرفتاني إلى مشاعر كنتُ متأكدًا أنها لن تستمر، فخلف عينيك كَوْن آخر لم تتعرفي عليه بنفسك، وخطيئتي أني أخذتك من حاضرك إلى ماض يخصني أنا فقط، لم أفهم هذا سوى متأخر وبعد أن انهار كل شيء بيننا. كنتِ الوطن الجديد الذي ومن غير أن أقصد احتللته بحب جارف، وحاولت تطويقه بكل ما هو قديم، لم أعِ أن هذا الوطن لا يزال فتيًّا، وعلينا لأجل أن ينطلق ويرى النور أن نخلّصه من أخطائنا وتجاربنا الفاشلة. هذا أنتِ! وطن جنَينا عليه جميعًا، لهذا لا تعتبي عليّ إنْ أنا فضّلت الانسحاب وتركتك تختارين النهاية بيننا حتى لا أكون مدانًا.

ليتني أنهض وأكملها، يجب أن أنهي مأساتي مع أوراقي البيضاء، ثوان فقط تفصلني عن الخمس والعشرين سنة، لتحررني من الإيديولوجيا والكتابة والصراع، التحرر من كل شيء، فلماذا استعجلتني لحظة التحرر الأخيرة؟ تحرري من جسدي الذي كان يجب أن يكون آخر مرحلة أصل إليها. توقفت قطرات الماء، ودوّى صوت انفجار.. ثم سكون!

كانت صالة منزلنا مكتظة بالنساء، وجلستُ وسطهن لأول مرة في وضع مفاجئ لم أستوعبه بعد، لأكون أنا من أتلقى عبارات العزاء، يعقبها سؤال واحد.. كيف ستقطعون الطريق لرحلة الجثمان؟

دخلت جارتنا «شوعية» وفي يدها قُفّة من الخبز لتقديم الواجب، كما هو المعتاد من نساء حارتنا في حدث مثل هذا، كانت تضع القُفّة فوق رأسها، قبل أن تنزلها وتتجه نحوي لتحضنني وتلهج ببعض الأدعية للميت وكلمات المواساة، أنزلتْ لثام وجهها فاتضحت خطوط الزمن الذي لم أشعر بمروره إلا على وجهها، خطوط لم تُخفِ جمالها، فأثره لا يزال واضحًا، جلستْ على ركبتيها وفي يدها قطعة من خبز وطبق من عدس، فهي تعلم أني أحبه بطريقتها المدخنة حين تضعه في بقايا دخان التنّور.

لم تتخلف ابنتها «خاتمة» أيضًا عن المجيء وفي يدها لفّة من أوراق الريحان لتضعها بين يدي، وهي تقول: ضعوها في الكفن.. روح وريحان وجنة نعيم بإذن الله.

لا تزال خاتمة أيضًا كما هي جميلة وممتلئة بالحياة، ذات جسد ممشوق، لكنه امتلأ قليلًا بعد زواجها الثاني، وإنجابها اثنين، ثم طلاقها مرة أخرى، استطاعت بعد طلاقها الثاني أن تبيع كمية الذهب الذي حصلت عليه من زيجاتها لتفتح صالونًا للتجميل وتزوّده بالأجهزة والمستحضرات، ولكنها ظلت محارَبة من أقاربها الذين يرون في هذا العمل تقليلًا من مكانتهم الاجتماعية، لكنها أصرَّت على العمل وفتْح صالونها على رغم كل الصعوبات.

استمر توافد النساء بعد زيارتهن لمن فقدوا أعزاءهم في حادث تفجير اليوم، وكانت شوعية، الناطقة الرسمية بأنباء حارتنا، قد سردت عدد الضحايا الذين كان من ضمنهم أحد جيراننا من المنتمين لحزب سياسي ديني، كان ممن قَدِموا مع أُسَرهم أثناء حرب الخليج، واستطاعوا بعدها، وخلال أربع سنوات، أن يجدوا لأنفسهم مكانة سياسية حين التحق البعض منهم بهذا الحزب الذي كوَّن مع الحزب الحاكم جبهة واحدة في مواجهة الحزب الاشتراكي، إلى جانب ظهور عدد من الأحزاب الأخرى، مما كان يُبشِّر بحراك سياسي مهم بدأ ينشأ عقب تحقيق وحدة الشمال والجنوب.

صوت شوعية الحاد وصل إلى أذني، على الرغم من محاولتها تنعيمه وإضفاء نبرة الحزن عليه وهي تتحدث عن مقتل زوج «غانية»:

– مسكينة غانية! ما جلبت لهم هذي الأُبّهة السياسية إلا الدمار.

ترد الأخرى بصوت منخفض:

– يا أختي حتى أولادهم التحقوا بهذا الحزب، وأصبح لكل واحد منهم فيلا وسيارة وحسابات في

البنوك.. والله إنهم قد نهبوا البلاد.

– الأغلب قد نهب وسرق.. والله يرحمنا من القادمين.

طافت بي صورة أحد أبناء غانية المنكوبة اليوم بمقتل زوجها، وكان لا يزال في الثانية عشرة من عمره، يلعب مع أولاد الحارة وبناتها، حين يراه والده، وكان ضخم الجثة، ذا كرش بارز من ثوبه الأبيض، يلفه بحزام مطرز بخيوط ذهبية، يتوسطه جنبية رأسها مصنوع من قرن الوعل، يصيح فيه بصوته الأجش:

– عيب عليك يا ولد تلعب مع البنات، هيا ادخل البيت.

كان في هذه الفترة قليل من أولاد حارتنا لا يزالون يلعبون مع الفتيات، لكنهم كانوا من أولاد العائلات القديمة فيها، وكان معظمهم من المحافظات الوسطى. أمّا أبناء غالية فلم يكونوا يختلطون بالفتيات أثناء اللعب، سوى أصغرهم، لكنه خضع فيما بعد لتربية دينية صارمة مثل أخويه، وحين كبر وعبَر مرحلة المراهقة، عرفناه مؤذنًا في مسجد حارتنا، ثم أستاذًا في دار المعلمين، إلى أن التحق مثل أخويه وأبيه بذلك الحزب الذي اكتسح كثيرًا من شرائح المجتمع وكان له تأثير في إدارة موازين القوى السياسية.

لم نفِق بعد من أحزان العديد من أُسَر حارتنا لمقتل أبنائهم في أكثر من جبهة فُتحت خلال السنة الماضية، ولا تزال مستمرة. وكان وجه جارتنا «حضية» هو الوجه الذي ظل ملازم مخيّلتي وهي تتلقى التعازي، لا أثر للبكاء عليه، لكنه كان قد عبَر مئة عام خلال أيام قليلة. جلستْ يومها تتلقى العزاء في ابنها، ضامّة ذراعيها أعلى صدرها، تهز جذعها بطريقة لا شعورية، وتستبق كل من يتقدم منها لعزائها لتخبره بأن «كهلان» ابنَها قد أخذ عروسه لقضاء شهر العسل في عدن، وأنها قد سمعت صوته بوضوح عبْر التليفون بجانب البحر، يضحك سعيدًا ويقول لها لا وجود للقنابل والرصاص هنا. كانت رغبته في أن يسافر إلى عدن لأول مرة في حياته، ولم يمر شهر على زواجه حتى جاءه أمر التحاقه بكتائب الجيش المتجهة إلى «أبين» لمواجهة الفصائل الإرهابية بعد أن نشطت عقب أحداث ثورة الربيع.

ظَل وجه حضية جامدًا لا يريد أن يعترف بحزنه، بل وأصرّت أن الجثمان الذي جاؤوا به ليس جثمان ابنها. لقد كانت ملامحه غير واضحة، وجسده المتفحم قد صار منتفخًا إلى حدٍّ جعلها لا تؤمن بأنه كهلان ولدها، وكذا ظل أهل الحارة في شك من هُويته، إلى أن كشفت أجهزة الأمن عن عدد القتلى في الهجوم الذي حدث في معسكرهم، وأسماء المجندين الذين كانوا في الموقع وقت الحادث ولم ينجُ منهم أحد.

وظلت حارتنا أبوابًا مفتوحة لاستقبال الموت، وتحولت جدران المنازل الخارجية إلى معرض لصور الشباب الذين قُتِلوا تباعًا في المعارك، وكان أغلب من قُتِل منهم طلابًا لم يكملوا دراستهم الثانوية، فقد كانت معظم أُسَر حارتنا تحث أبناءها على الالتحاق بسوق

العمل الحر، فاتجه بعضهم لشراء باصات النقل الخاصة، وتحويلها لوسائل نقل عامة، وقام بعضهم بفتح بقالات صغيرة أو وِرش ومحلات بيع أجهزة التليفونات، أمّا من لم ينجح في أي عمل من هذه الأعمال، فكان يلتحق بالجيش.

وحين تزوج كهلان بابنة عمه، كان قد أسس مشروعه الخاص منذ أن كان في الإعدادية، وهو بقالة صغيرة فتحها في الدور الأرضي من منزل عائلته الذي توسّع بفضل أمه حضية، كان شابًا نشيطًا وسيمًا، وكانت حضية تخاف أن تصطاده إحدى فتيات الحارة المترددات على بقالته، لهذا رأت أن تزوجه سريعًا بعد أن التحق بالجيش.

لم يكن في حارتنا أي نشاط اجتماعي غير الزواج، والاحتفاءات الدائمة بالمواليد طوال العام، عالمنا هنا يهتم بتزويج الشباب في سن مبكرة لتحصينهم سريعًا، واليوم أصبح العزاء لا يختلف عن أية مناسبة أخرى.

أجلس لأتقبَّلَ كل هذا الموت المحيط بنا، والسواد من حولي لم يضف شيئًا جديدًا؛ فهو اللون السائد في كل الأحوال. أمّا هؤلاء الذين قُتِلوا ولم يعيشوا الحياة بعد، فكيف لهم أن يرحلوا هكذا بمنتهى السهولة؟!

أغارُ كثيرًا على الحياة حين يتربصها الموتُ بهذا الشكل، فلماذا الأسود ينتشر في حياتنا، يلبسنا نحن النساء بالذات حتى صار الأسود امرأة؟ هل لأنه لون حيادي وليس له موقف من الحياة أو الموت؟
أم لأنه اللغة التي لا تحتاج لمفردات عديدة، لغة مصمتة تناسب حياة المرأة هنا؟

تركتُهن ودخلتُ غرفتي، وأمام دهشة الجميع وقفت وقد ارتديت عباءتي استعدادًا لرحلة التشييع، اعترضتْ والدتي على ذهابي خوفًا من الأوضاع الأمنية.

– ما علاقتك أنتِ لتصري على مرافقتهم؟ لقد انفصلتِ عنه منذ سنين.

– يا أمي بيننا قرابة الدم وعِشرة سنين، وما بيننا لم ينقطع حتى بعد انفصالنا، انظري لكل من أتى ليعزينا في موته، الجميع يعتبره مرتبطًا بنا رغمًا عن كل شيء، مرتبطًا بي أنا، ويجب أن أكون معهم.

– الناس هنا لا تعترف بهذا، لا عِشرة ولا دم، عيب عليكِ تضعينا في موقف مُحرِج، فأنتما منفصلان منذ سنين وعيب في عرفهم على من تطلّقت أن ترافق طليقها لدفنه.

دخل أخي الكبير متجهمًا، قال وهو يَكِزُّ على أسنانه، وبنظرة تهديد نحوي:

– اخلعي العباءة واجلسي من غير كلام كثير، سنذهب أنا وأخوكِ بسيارته.

تضاعف ألمي لعدم فهمهم ما أشعر به؛ فهذه رحلتنا الأخيرة معًا. فانفجرت بالبكاء، ودخلت شوعية لغرفتي لتهدئتي، وحدها وقفت أمام أخي وقالت له:

– شوف أنا من رأيي أن تأخذوها معكم؛ لأنكم ستجتازون النقاط الأمنية دون تحقيقات كثيرة لو أن معكم عائلة، خصوصًا أنكم ستقولون إنها زوجته، لن يجْرَؤوا أن يوقفوكم لأي سبب.

نظر أخي إليّ وقد ارتخت ملامح التهديد من وجهه، وقال:

– خلاص تمام.. اجهزي.. سوف نتحرك.

نظرتُ إلى شوعية واحتضنتها وهي تقول:

– هل تصدقين يا ابنتي؟ لم أقتنع يومًا بانفصالكما أبدًا، فبقاؤه في نفس الحارة، وإصراره على المنزل الذي سكنتم فيه معًا منذ زواجكما، لا معنى له سوى عدم تسليمه بانفصالكما.

قالت أمي:

– بلا مبالغة يا شوعية، لو كان يحبها كان عمل المستحيل حتى يردّها، لكنه لم يغير شيئًا في حياته.

– لا تجوز عليه الآن غير الرحمة، الله يرحمه، كان رجلًا كريمًا ولم يؤذِ أحدًا.

– يا أمّاه لا داعي لهذا الكلام الآن، أنتِ تعرفين أن كلانا قرر ذلك عن رضا وقناعة، ولم يؤثر انفصالنا على قرابتنا.

واقتحم الماضي وقت انتظاري للسفر، كأنه ومضة انطلقت من آلة تصوير، كل شيء كان يمر أمامي كشريط سينمائي حين جلست بالقرب من جسده في مجلس الضيوف بعد أن غُسّل وكُفّن، وضعتُ على جانبي رأسه أعوادَ الريحان، ولم تستطع رائحة هذه الأعواد أن تثني عقلي عن استعادة رائحته التي ما زالت هنا في هذا المجلس، حين كنا معًا في أول اعتراف وتمهيد للحياة بيننا.

وضعنا جسده في الجزء الخلفي من السيارة، وجلستُ على الكرسي الجانبي، قدمي عند قدميه، لأقوم معه برحلته الأخيرة، إنه يعاقبني.. نعم يعاقبني! فهو يعلم كم أحب السفر، ولكننا لم نسافر معًا غير مرة واحدة طوال فترة زواجنا، وفي المرات الأخرى التي سافر فيها لم أكن برفقته، ولكنه اليوم يختار أن أكون بقربِه، لنقطع طريق عودة تختلف تفاصيلها عمّا كانت عليه قبل خمسة وعشرين عامًا.

الشمس تعارك رحيلها حين وصلنا إلى نقطة الخروج من العاصمة، قابلتنا عناصر أمنية ترتدي الزي التقليدي، إلى جانب بعض عناصر الأمن التابعة للداخلية، وانتشرت شعارات الموت المُلصَقة على الجدران وعلى براميل الصفيح المُتخَذة كحواجز أمنية، ملامحهم
لا تمُتُّ لرجال الأمن بصِلة، فأغلبهم أطفال لا يتجاوز أكبرهم العشرين عامًا، وجوههم مُغبَّرة ونحيلة، خالية من أي تعبير، كانوا أشبه بجثث بُعثت فيها الحركة فقط. يقفون لأول مرة للتعرُّف على المارين من النقاط، لا شَبه بينهم وبين أبناء القرى أو القبائل الأكثر حذقًا وحِدَّة في التعامل، ما جعلني أخمّن أنه قد جِيء بهم من مناطق معزولة وبدائية.

قابلت مرةً أحد هؤلاء الأطفال الذين التحقوا بمن أُطلِق عليهم الحوثيون، بينما يُطلِقون على أنفسهم «أنصار الله». كان يركبُ الباص وعلى كتفه سلاح، يلبسُ ثوبًا شعبيًا، كانت إجابته عن سؤال أحد الركاب: لماذا يحمل سلاحه في المدينة ويتجول به، أن قال:

– نحن أنصار الله، أتينا نحرر البلاد من المرتزقة والخونة.

– وأين هم الخونة.. هل وجدتموهم؟

– هذي أوامر سيدي.

– والله يا ابني أنتم وقود المحرقة القادمة، ارجع عند أهلك وأكمِل تعليمك أفضل لك.

– البندقية أشرف من القلم.

كان يقولها بطريقة آلية، وكأنه يُملي مايقوله من كتاب، بتعابير وجهه البريئة، وقسمات وجهه النحيلة السمراء التي لوّحَتها الشمس.

سكت الرجل ولم يتابع؛ لأنه يعلم أن هؤلاء الأطفال قد غُسِلت أدمغتهم بأفكار عقيدة تجاوز عصرها أربعة عشر قرنًا، وكثير منهم الآن يُحشَرون في مقرات الأمن والنِقاط، وعلى سيارات مكشوفة تجوب العاصمة، ومعظمهم يُؤخَذ إلى الجبهات تحت شعار الموت. ميليشيات تسلحت وقَدِمت من الجبال تزاحم

رجال الأمن مهامها، ويتوغلون في مؤسسات الدولة ومقراتها العسكرية، ويُفرَضون كرقباء على الموظفين في وظائفهم.

كانت قريبتنا «فريدة» قبل اجتياح صنعاء بعام تقريبًا، تتحدث والذعر يملأ وجهها عن أحد أبنائها التوءم الذي ينوي الالتحاق بهذه الجماعة، بتشجيع من والده، عندما قال لها والدي بأسى:

– لقد ظهر زوجكِ على حقيقته المختبئة تحت بدلته الحديثة، حقيقته السلالية يا فريدة، تتذكرين يوم أن عارضنا قرار زواجك منه؟ ألم نحذرك أننا مختلفون عنهم؟ لا يمكن لهؤلاء أن تتغير عقيدتهم التي شربوها مع حليب أمهاتهم، وورثوها من نُطَف آبائهم.

كانت فريدة تحاول أن تجد طريقة للهرب إلى عدن والنجاة بابنها الثاني، فهي لا تريد أن تخسر الاثنين، وكان ما يطمئنها أن «بكيل» يختلف عن «ردفان» أخيه المرتبط بأبيه.

كان والدهما صحفيًا يدير صحيفة رسمية، وحين قَدِمت فريدة إلى صنعاء آتية من عدن قبل أكثر من خمسة وعشرين عامًا، هربًا من الأحداث الدامية، لم تفكر إلا في إيجاد فرصة للعمل في الصحافة هنا، حين تعرَّفت على زوجها، كانت تمر بفترة حرِجة من حياتها، فقد انهار حبها الأول، واحترقت أحلامها الاشتراكية في حرب 86، كان كل شيء ينهار من حولها، اعتقدتْ أن صنعاء ستلملِم جراحها، وتعيد لها أملها في مستقبل أفضل.

لم تنجُ إلا ببكيل، بعد أن هربت به وحصلت على الطلاق، لكن بقي جزؤها الآخر هنا في الشمال مع هذه الجماعة، يسانده والده، الذي سخّر مؤسسته الإعلامية لنشاط هذه الجماعة.

قد يكون ردفان ابن فريدة أحد هؤلاء الشباب الذين ألحقوهم بجبهات القتال، أو أحد أفراد هذه النقاط.

بحثتُ عنه في الوجوه المُغبَّرة، لكني لم أجده، ربما يكون داخل هذا المبنى الحجري الذي اتُّخِذ مقرًا لنقطة التفتيش، لا يوجد سوى رجلين من رجال الأمن المركزي، أوداجهما منتفخة بأوراق القات. اتجه أحدهما نحونا وبدأ في إلقاء الأسئلة، والنظر في الهُويات، كان لقب عائلتنا محيرًا بالنسبة لهم، فكان سؤاله من أين أنتم؟ وما عملكم؟ ردّ عليه أخي باللهجة الصنعانية:

– نحن من صنعاء، مجرد موظفين.

لكنه ظَل يلقي أسئلته الكثيرة، وطلب تفتيش هواتفنا، كنا على حذر قبل أن نقوم برحلة السفر هذه، فقد محونا ما قد يثير هذه الجماعة ويتم اعتقالنا بسببه، كان من ضمن ذلك «البوست» الذي كتبته على صفحتي في «فيسبوك» بعد استيلائهم على مؤسسات الدولة، كان بعنوان (عودة الإمامة بقِبلة خُمينيّة). حينها كنا نستخدم صفحات «فيسبوك» لكتابة المقالات بعد أن صودرت الصحف والمجلات، وهكذا شرعنا قبل

السفر في محو دقيق لكل ما كتبناه عن هذه الجماعة.

كانت صنعاء ملتهبة، حين سمعنا دوي المدافع، وانهمر صوت الرصاص والقذائف، ولم نتوقع أن الإمامة ستعود وتسيطر دون مقاومة على كل شيء. وفي إحدى ليالي سبتمبر من عام 2014، انقطع التيار الكهربائي، واستمر الانقطاع ساعات الليل كله، كانت هواتفنا فقط لا تزال تعمل في تلك اللحظات بشحن ضعيف، حاولنا إبقاءها أطول وقت ممكن، حين وصلت رسالة شوعية على جروب «نساء حارتنا» في «واتسآب» تخبرنا بما يحدث في مقر قيادة التوجيه المعنوي، حيث كان زوجها يعمل، فقد جاءت الأوامر لأفراد الأمن بتسليم مبنى القيادة دون مقاومة.

وتوالت الأخبار على مجموعات «واتسآب» ونحن في دهشة مما يحدث، حتى غانية تحدثت، وكان من النادر أن تشغل نفسها في أحاديث التليفون، وتعلن أن الحوثيين قد استولوا على الفِرقة مدرع وجامعة الإيمان، وهي المقرات التابعة لجناح حزب الإصلاح الذي أصبح حاكمًا بعد ثورة 2011، واحتُجِز زوج جارتنا غانية الذي كان من قيادات هذا الحزب، هذه الليلة في مبنى القناة التابعة لحزبه، ثم وصلتنا تسجيلات تداولتها وسائل التواصل، بصوت مذيع معروف تنقل خبر اقتحام الحوثيين للقناة والاستيلاء عليها.

وتوالت الأخبار تباعًا.. الاستيلاء على المعسكرات ومقرات القيادة العسكرية للجيش دون مقاومة، فكأن تلك المعارك التي كانت بين هذه الجماعة والجيش مجرد عرض مسرحي.

أتى صوت شوعية مخترقًا رسائل «واتسآب» وهي تقول بعصبية:

– قلنا لكم إنّ احتجاجاتهم في الشوارع لم تكن بريئة، وراءهم من يخطط لهم، والناس صدّقت أنهم جاؤوا من أجل إنهاء الفساد، واتخذوه ذريعة.

– صوت غانية تقول:

اشتباكهم قبل يومين مع الجيش على مشارف صنعاء وسّع القتال، زوجي كان يقول إنها لن تمر بسلام، مؤكدًا رغبتهم في التخلص من الحكومة الشرعية.

استمر الانقطاع الكهربائي، وفرغت أجهزة التليفونات من الشحن، وكان بداية الظلام الذي سيغشى سماء صنعاء لسنوات قادمة، وبداية عدِّها التنازلي لتلفظ كل ما له صلة بالحياة، وخروج الآلاف من أبنائها لشتات تاريخي طويل، في انهيار آخر يوازي انهيار سد مأرب العظيم.

الهواء ساكن يذكّرني بإحساس ممتلئ برائحة الفل، المنتظرة للحظة العناق، أطراف الأصابع باردة دائمًا حين تبدأ رحلتها بعد منتصف الليل، لتثير مذاقًا حلوًا يتسرب إلى حلقي كأول مذاق للحب، حين تبدأ أنامله في شق طريقها، وتمر بهدوء على رؤوس أصابعي، ثم تنزلق إلى باطن الكف، ترسم دوائرَ كثيرة، وكأنها تعبر عالمي اللامرئي، تطوف تاركة أنفاسي لتكتشف لأول مرة لغة اللمس وقدرته على خلق البدايات، لمساته الليلية جعلتني اكتشف قارة جديدة في باطن كفي، بل كانت تنقش خارطة حب بدهاء.

كنت أتعرف على نفسي لأول مرة حين تخترقني نظراته، فما الذي يمكن أن أكونه من خلالها، هل أصل إلى مخبأ الأنفاس المتصاعدة التي تتخلق في جوفي؟ رجوت أن يبقينى الزمن رهينة هذه اللحظات، لكيلا ينتهي شغفها.

وعندما تنتهي الرحلة الليلية للمسات، أكون قد استيقظت بعدها لأتأكد من أنه كان حقًا موجودًا، ولم أعترف له أبدًا أنني دائمًا ما كنت أنتظرها، هل يتذكرها كما أتذكرها؟ هل ستبقى ذاكرته في مكان ما في هذا الوجود؟ يكفي إنْ بقي منها ذكرى هذه اللمسات، الذكرى الوحيدة التي يجب أن تبقى بيننا بعد انتهاء حياتنا في هذا العالم، بسيطة هي، لكنها مفتاح لمعرفة الذات، فأصابعه هي الفكرة الشائكة والصريحة، بل هي التي عرّفتني بي، وهي أيضًا ما ظللتُ أفتقده منه بعد ارتباطنا وطوال سنوات زواجنا، اللمسة هي التوقيع الأصلي على الوجود.

أنامله الثلجية تعود الآن وتطوف راحة كفي من جديد، وكأنها تعيد رسم تلك الخريطة القديمة، لكن خطوطها ودوائرها تُمحَى من راحتي، واللمسات تبتعد رويدًا رويدًا، تاركة وراءها برودة شديدة تسري في جسدي. كنت أنادي عليه حين همس قائلًا لي: أغلقي الباب ورائي. حاولت النهوض، فلفَّ المكانَ بياضٌ شديد وثقل كل شيء من حولي، لقد مرّ زمن على تلك اللمسات، فلماذا عادت اليوم بهذا الشكل في حلم بلون الحليب، يشبه نهار هذا اليوم الجمعة؟

صحوت قبل بدء الصلاة، ولكنّي بقيت في الفراش أستعيد الحلم الذي ترك أثره في كفي، كان جميلًا أن يعود لي أثرها ولو حلمًا بعد مرور زمن من انفصالنا، أنامله الباردة كقطع ثلج لم تنصهر من اشتعال مشاكلنا، فقد كانت أغلب خلافاتنا حربًا صامتة، نترجمها بيننا من خلال بُعد جسدي يطول في أغلب الوقت ونحن في غرفة واحدة.

كان هذا البُعد المحصور في بدايته يشكل لنا فرصة لإعادة قليل من المشاعر الخامدة بحكم التعود والروتين من خلال تلك اللمسات كأسهل طريقة للتعبير، فقد كان البوح بيننا مطوّقًا بحواجز لم أفهمها إلى الآن. وما

كنت أحزن كثيرًا لأجله مع مرور الوقت هو أننا تخلّينا تدريجيًا عن تلك اللمسات التي عادت وتسللت البارحة في أحلامي، وكأنها تنوي أن تخبرني بشيء ما.

يوم الجمعة ككل أيامها المعتادة، لكنها اليوم أثقل، كحجر رابض على صدري، استفقت بصعوبة، الكهرباء مقطوعة كعادتها بعد أحداث الشهور الأخيرة من العام الفائت، وبعد سقوط العاصمة. منزلنا لا يزال هادئًا لولا أن قطعه صوت انفجار شديد هَزّ نافذة غرفتي، فانطلقتْ أصوات الهرج في الشارع، بقيتُ ساكنة أستعيد اللمسات، وأمي تهزني من كتفي بقلق لتخرجني من سكوني. أخذتْ هاتفي الذي كان يرن حين عجزت عن مد أصابعي المتيبسة، فلم أسمع منها سوى أنها كانت تطلب منهم أن يتأكدوا أنه ليس من ضمن الضحايا، مرّ الوقت ثقيلًا حتى جاء الاتصال الآخر ليؤكد أنه لم يكن في المسجد، ولكنهم وجدوه في منزله.

وجدوه ميتًا! لولا ذلك الانفجار لم نكن لنعرف أنه لم يذهب هذه المرة إلى صلاة الجمعة، واختار الرحيل بهدوء، كما عاش صمته إلى أن قضى عليه.

لم يكن بين ضحايا تفجير المسجد، فاضطر أحد إخوتي أن يذهب إلى منزله ليتأكد من وجوده، وظل يطرق باب شقته دون أن يتلقّى أي رد، جرّب الاتصال به وحين وصل صوت رنين هاتفه المحمول من داخل شقته، قرر أن يكسر الباب، وكانت صدمته حين وجده جالسًا تحت نافذة غرفته المطلة على الشارع ممسكًا ببعض الأوراق دون حِراك.

لم نعرف حينها هل نستقبل العزاء فيه، أم نشارك الأُسَر المنكوبة بأعزائها، فقد أصبح الحي صوانًا كبيرًا للحزن!

وضعتُ الهاتف مرة أخرى في أذني لأجيب عمتي التي تبكي ابنها وتطلب منّا أن نسرع في نقله إلى عدن ليدفنوه في مدافن العائلة، مع علمهم بصعوبة السفر هذه الفترة، فكيف لنا أن نجتاز غضب الطريق بعد اشتعال المحافظات الجنوبية المطالبة بالانفصال؟! شعرت بغضب لعدم اهتمامهم بما سنواجهه إن أصروا على حمل الجثمان إليهم، كنت أريده أن يُدفن هنا في حارتنا بجانب قبر والدي الذي لم تهتم عمتي بطلب جثمانه ليدفن في مقبرة العائلة، فهذه الحارة التي لم يغادرها، على رغم كل ما حدث بيننا، وعلى رغم كل ما حدث في البلاد، أولى أن تضمَّه بترابها.

لم يهتم بمكان دفنه سوى والدته التي تريده قريبًا منها في مقبرة العائلة، مزارها الشهري، والذي يصادف منتصف كل شهر هجري، مقبرة تضم جثامين العائلة، والديها (جدَّي لوالدي) وشقيقتها (عمتي) وزوجها، ثم عمي (أخاها)، واليوم سينضم إليهم ابنها، كانت المقبرة المكان الموازي لمنزلها، حيث تجد أحباءها بالقرب

منها. كثيرًا ما فكّرتُ في جوف الأرض كرحِم امرأة يستعيد أبناءه بعد أن ينتهوا من مشوار الحياة، وكأن هذه الأرض تعيدهم مرة أخرى لكن بشكل آخر لا نفهمه.

وأصبحت عمتي حامية لأفراد هذه العائلة، وكأنها تحمي نفسها من الضياع بعد الموت لكيلا تشعر بالوحدة حين تنتقل إلى العالم الآخر، هكذا كانت تعتقد أنهم سيكونون في انتظارها. أتذكر في مرة قال لها زوجها قبل أن يموت بفترة، وكانا متخاصمين: يكفي أننا قضينا الحياة معًا لسنين طويلة، لا أريد أن أراكِ بعدها أبدًا. ردّت عليه قائلة: وهل تعتقد أني سأكون بقربك بعد موتي؟ وإن كنت، فأنا لن أقبل أن أكون معك هناك، حتى لو اضطررت أن أكون من أصحاب جهنم. ضحك وقال لها: تعترفين أني سأكون في الجنة!

كثيرًا ما كان يداهم عمتي الشعور بالحسرة على شبابها وبأنها ضحت لأجل أبنائها، حين تركت عملها، ولا تفتأ تذكر زوجها بذلك إن نشب بينهما شجار ما، وبأنه قد ورطها بالإنجاب سريعا وهي في قمة عطائها الوظيفي في أحد البنوك الأجنبية، ولولا ذلك لما تركت عملها الذي لو استمرت فيه لكانت ستصل لمنصب رفيع. وكلما كان يسمع منها هذا، يهز رأسه ويضحك بصوته الأجش قائلا:

– اسمعوا السفيرة عزيزة! وكأني أجبرتها على الزواج بي، لقد كدتِ تطيرين من الفرح يوم زواجنا.

ظلت بطاقاتنا في يد رجل الأمن، وبعد تأكده من حالة سفرنا الطارئة، وألا علاقة لنا بأي طرف من أطراف الصراع، فتح لنا الحاجز للعبور. يبدو أن الموت فقدَ هيبته حين أصبح مجانيًا!

الطريق طويلة من العاصمة إلى المدينة الساحلية، وعلينا أن نصل في ظل هذا الوضع إلى عدن سالمين، وفي وضعية جلوس غير مريحة عندما اخترت أن أكون بجانبه خلف السيارة، وهو الذي لم يكن يحبذ الجلوس معي في الأماكن العامة، أو أن يراني أحد معه، لم أكن أفهم تصرفاته وقتها.

أمّا اليوم فلا خيار لديه لأجتاز الطريق الذي اجتازها قبل خمس وعشرين سنة، بعد أن رُفعِت عنه الحواجز والنقاط الحدودية عقب إعلان الوحدة بين الشطرين، وها هي الآن تعود بأحقاد أشدّ وأمَرّ مما كانت عليه.

القلق يرافقنا من المعارك التي تخلّف وراءها بعض التقطعات التي قد نواجهها حين نصل لمدخل الجنوب، والمسافة التي كنا نقطعها قبل أن تندلع هذه المواجهات لم تكن تتجاوز ست ساعات، أمّا اليوم فإنها ستطول بعد أن عادت أصوات المحتجين والمطالبين بانفصال الجنوب بقوة بعد استيلاء الإماميين على السلطة في العاصمة، وهو ما ينبئ بحرب قادمة.

اجتزنا نقطة الخروج من صنعاء، رافقنا هواء نقي آت من القرى المنتشرة على جانبَي الطريق، وقبل أن نصل إلى ذمار بكيلو مترات، سألت أخي إن كنا قد مررنا بـ (رصابة)، لم أنسَ حين تجولنا في مزارعها. كنت وقتها في العاشرة من عمري، وكانت رصابة مزارع للحيوانات، ومعامل لإنتاج الحليب، ورأيت للمرة الأولى الأبقار الهولندية، والخيول العربية الأصيلة التي دُرّبت على مصافحة الناس، ليتني اليوم أعيد بعض تلك الدهشة! هل سنجدها كما كانت بعد أن تم تهريب بعض تلك الخيول من المزرعة لجهة غير معروفة، أو بالأحرى السطو عليها وسرقتها؟

استقبلتنا في ذلك الزمن امرأة لا أتذكر ملامحها جيدًا، وهي إحدى قريبات جارتنا شوعية التي رافقتنا ودَعَتنا لزيارتها، كانت تسكن في أحد بيوت المزرعة المبنية من الطوب، وأسقفها خشبية، ونوافذها قريبة من الأرض. شربنا حليبًا طازجًا، كان بياض الحليب يومها شيئًا مريحًا، ومنظر تلك المزارع الهادئة لا أراه الآن.

وصلنا ذمار، وقابلتنا نقطة أخرى لعناصر الجماعة عند مدخلها، وبدأوا بتوقيف الحافلات والسيارات لتفتيشها في اتجاهين من الطريق، واتخذنا اتجاهًا مقابلًا لاتجاه حافلات النقل المحمّلة بالضائع، وقد نُبشت أغلبها للتفتيش. اقتربنا من أحدهم ليأخذ أوراقنا ويدوّن أسماءنا على ورقة خارجية، وعلينا أن نجيب عن أسئلته التي لم تختلف عن مثيلاتها في نقطة الخروج من صنعاء.

بعد ربع ساعة من التوقف عاودنا السير، ودخلنا المدينة، هي أيضًا لم تختلف عن صنعاء؛ فقد انتشرت

ملصقات الموت الخضراء في شوارعها ولم تسلم من الاعتقالات والقتل. هذه المدينة ارتبطت بشاعر اليمن المثير للجدل عبد الله البردوني، الذي لم يسلم هو الآخر من هذا الصراع، أعادته الحرب بعد موته ليخوض معركتها هو أيضًا، فقد أصبح شعره سلاحًا يستعمله كل طرف ضد الآخر، وكل طرف يؤوّل شعره حسب سياسته، هل يعلم الآن أنه ليس لصًا واحدًا دخل بيته، بل لصوصًا أغاروا على وطن بأكمله؟ هل يعلم أن نبوءته تلك قد تحققت:

أرأيت هذا البيت قزمًا
لا يكلفك المهارة؟
فأتيته ترجو الغنائم
وهو أغرى من مغارة
ماذا وجدت سوى الفراغ
وهرة تشتم فارة
ولهاث صعلوك الحروف
يصوغ من دمه العبارة
يطفي التوقّد باللظى
ينسى المرارة بالمرارة
لم يبقَ في كوب الأسى
شيئًا حساه إلى القرارة
ماذا؟ أتلقى عند صعلوك
البيوت غنى الإمارة
يا لص عفوًا إن رجعت
بدون ربح أو خسارة
لم تلق إلا خيبة
ونسيت صندوق السجارة
شكرًا أتنوي أن تشرفنا

بتكرار الزيارة

التفت أخي إليّ وهو يقول:

– ليس وقته الآن، اتركي لصوص البردوني في حالهم، معنا جنازة، هذا الذي ينقصنا أن نُعتقَل بقصيدة.

ردّ أخي الثاني وهو يضحك:

– على أساس أن الذين أمامك يفهمون شعر البردوني ومقاصده.

– بطّلوا فلسفة أنتم الاثنين، على أساس أنكم فاهمون أشعاره!

اختفت زرقة السماء خلف بقايا أدخنة، أهي أدخنة قذائف أم أدخنة الخوف؟ وظهر مسلحون بلباس شعبي يقطعون المدخل المؤدي إلى المناطق الجنوبية، توقفنا أمامهم، وتوجه أحدهم إلينا بعد أن أشهر سلاحه وأمر بفتح زجاج السيارة الأمامي:

– إلى أين؟

– إلى عدن؛ نوصّل المرحوم لمسقط رأسه لدفنه.

– لكن السيارة تحمل أرقامًا شمالية، أين بطاقاتكم الشخصية

ورخصة القيادة، أنتم شماليون، فما علاقتكم بالجنوب؟

– المرحوم من عدن، وهو قريبنا.. لم يدعه المسلح يكمل حديثه وأمره بأن يفتح الباب الخلفي للسيارة.

كنت جالسة أتأمل الجسد المُسجّى أمامي حين مَدّ المسلح يده ليفتح غطاء وجه الكفن، تجمدت عيناي حين شاحت من فمه المغلق ابتسامة مؤلمة، ابتسامة لم يرها غيري على وجهه الساكن، ليته يشعر الآن بألمي وموته الممتزج برائحة الحرب! كيف له أن يعود جثة
لا حياة فيها وهو من عبَر هذا الطريق بأحلام كبيرة عند إعلان الوحدة؟ كيف أدرك أن عليه المغادرة الآن؟!

التفت المسلح إلى أخي ليسأله:

– ومن هذه؟

– زوجته.

نظر إليّ وقال:

– أين أوراق المرحوم؟

أخرجتُ شهادة الوفاة وبطاقته من حقيبتي. إضاءة واهنة صادرة من جهاز تليفون المسلح للتحقق من

الأوراق، وأنطفأ ذلك الضوء القادم قبل سنين طويلة، ضوء عبَر كل هذه النقاط، وانطفأت فرحة لقاء الأهل اليوم. ألم تكن كل تلك السنوات كفيلة بأن تنزع كل ما علق بنا من خوف ومن إرث الدم؟

ظللت أحدق في وجهه، وللحظة زمنية خاطفة غامت فيها ملامحه وكأني أرى وجهًا غريبًا عني لم أره من قبل، يبدو وجهًا مطمئنًا، هادئًا، وكأنه يقول بسخرية: تركت لكم ما تبقى من دمارنا.

على أية هيئة سنكون بعد أن تغادرنا هذه الطاقة المحركة لأجسادنا؟ أليس للجسد مصير آخر غير أن يتحول إلى تراب؟ وأين تذهب ذاكرتنا؟ ألهذا يكتب البعض ذكرياتهم قبل أن يرحلوا، ويخلّد البعض ذاته بما ينجزه في الحياة؟ لكل إنسان طريقته في الخلود، فهناك من يبقى اسمًا متعاقبًا في هُوية أبنائه، وهناك من تخلّده الحروب، والبعض يتحول إلى حبر على ورق.

لقد تغيرت ملامحه كثيرًا، فعظام وجنتيه برزت وكأنها جبال صغيرة كانت تواجه ما اعتراها من هموم، وجبهة منطفئة لم أستطع أن أضع عليها قُبلة الوداع.

تركت غطاء وجهه مكشوفًا لأسأله عن كل ما مرّ بنا، لماذا كنا نختبئ من المواجهة والحديث عن مخاوفنا وانكسارنا؟

هل من يرقد الآن أمامي هو ذلك نفسه من فآجأني بتلك الصورة القديمة التي كانت تحتفظ بها عمتي، حين كنا نتبادل صورنا العائلية قبل وحدة الشطرين؟ كنت فيها ما أزال طفلة بضفيرتين وفستان أحمر قصير، أقف أمام والدي وبجانبي إخوتي. كان والدي يحرص أن يرسل لعائلته كل عام عددًا من صورنا مصحوبة بالرسائل لمعرفة أخبارنا، كما تصلنا صورهم ورسائلهم، وكانت الصور هي الشيء الجميل الذي عبَر تلك الحواجز والنقاط، بل كانت اللغة التي نُعبّر بها عن مشاعرنا، واللحظة التي تختصر المسافة بين شطرين، وعائلتين باعدت بينهما الأحداث.

أخرجَ تلك الصورة حين زارنا لأول مرة بعد أن رُفعت النقاط، وكان ينظر في وجهي ويقول:

- مش معقول! أهذه أنتِ؟! بالله عليك شوفي نفسك كيف كنتِ خادمة، ويضحك بملء صوته.

أدركت أنه يستفزني بتعليقه، ولكني لم أستسلم حينها، أخرجت جميع الألبومات القديمة وقلت له:

- هل شُفت نفسك في هذه الصورة؟ إيش تحسب نفسك؟ مليح؟!

وهكذا نبشنا صور تلك السنين، والتي عرفنا بعضنا من خلالها، وليتنا بقينا مجرد صور محفوظة في ألبوم! صورنا التي كنا نظن أنها ستبقى بذلك الجمال إن هي خرجت وتحققت أمامنا على أرض الواقع. ما الفرق بين الموت والصور؟ لحظة شعورية خالدة تلتقط تلك اللحظة، وتظل كذلك، لا تتغير مع تقدم الزمن.

وهو بالنسبة لي قد فقدَ ملامح الحياة منذ سنين، وتحديدًا بعد صيف 94، ذلك الصيف الذي غيّر فصول السنوات التي تَلته.

بعده تراجع ضمن من تراجعوا على رقعة الشطرنج، لكنه لم يكن تراجعًا تكتيكيًا، بل كان تراجعًا نهائيًا، وكنت أنا ضمن المساحة التي تراجع عنها واعتزلها، اشتقت إليه كثيرًا وهو بقربي، استحالت الأيام بيننا إلى كابوس مظلم لا أملك أن أوقظه منه.

أزحت مساء يوم، من أيام ما بعد تلك الحرب، ستائر غرفة الجلوس، ليدخل ضوء القمر لعلّه يجدنا، لم تطل سوى حارتنا تحت ذلك الضوء برداء كئيب، وكانت في الفترة التي أعقبت حرب الصيف قد شهدت الكثير من التغيرات، فقد غادرها أول من سكنها ممن قِدمَ بعد الوحدة، ليختاروا الغربة، وحَل محلهم من استطاع أن يستغل الفرصة للانقضاض على ما عُرض للبيع من ممتلكات، وكان معظمهم ممن وجد لنفسه مكانًا بفضل هذه الحرب.

لم يملك زوجي أن يفعل مثلهم ويغادر، ولكنه ظل يشهد كل ما كان يحدث، وسلّم نفسه للعزلة التي كان يرى أنها الحصن الذي سيبعده عن دائرة التصفيات. لم أفهم وقتها ما طرأ عليه، وبقيت تلك الذكريات. ذكريات رجل أتى من زمن لم أعشه معه، ولكنه زمن اجتره معه، الزمن الذي لا نستطيع ان ننفصل عنه، لأننا نصبح ظلاله، وكان هو ظل ذاك الزمن الذي أثّر كثيرًا على علاقتنا.

نحن عائلة بسيطة، دائمًا نستقبل الضيوف من أقاربنا القادمين من المحافظات الأخرى، فكنا الفرع الوحيد من العائلة الذي يسكن في العاصمة، فأصبح منزلنا محطة للجميع، من لديه علاج، أو معاملة ما، أو سياحة، فبيتنا وجهته الوحيدة.

مِن بيتنا الصغير هذا كنت أتطلع دائمًا للقادمين، فهم يكسرون رتابة حياتنا المُمِلة، والدتي ربّة منزل، محبة وكريمة، أمّا والدي فهو يفضّل الابتعاد عن العلاقات الاجتماعية، منظّم بطريقة نتلهف معها للفوضى، يجلس في مكتبه معظم الوقت بعد عودته من عمله.

تتسلل أشعة الشمس من نافذة غرفته، كما نتسلل نحن أحيانًا إليها بحذر، فقدْ كان لأبي عالمه الغامض بالنسبة لنا، عالمه الذي لم نفهمه، حواجزه كثيرة، فدولاب ملابسه مغلَق دائمًا ولا يفتحه إلا حين يكون وحده، ولكنّا نعرف ما يخبئ داخله، ولا نهتم إلا برف واحد من رفوفه الواسعة، ذاك الذي يحتفظ فيه بألعابنا، كان يأخذها منا بعد أن ينتهي وقتنا المحدد للعب بها، وكان يوم الجمعة فقط، فحين يفتحه أمامنا كأنه فتح لنا مغارة علي بابا، عرائسي المختلفة الأشكال، وألعاب إخوتي من سيارات وقطارات ومزرعة حيوانات وغيرها الكثير، ألعاب رافقت سنوات طفولتنا ولم ينتهِ شغفنا بها.

كان أبي يحافظ عليها ويخبئها حتى يُبقِي شغفَنا بها، ولعله كان يخبئنا معها فلا يتسرب عالمنا السري أو طفولتنا من خزانته (محل أسراره)، حتى إنه كان يحرص على أن نحتفظ بدفاترنا المدرسية حين ينتهي العام، ليضعها في درج عميق من أدراج مكتبه، وقبل أن تنفد أقلامنا الرصاص كنا نعيدها له ليزوّدنا بأخرى جديدة. كان عالمه مستمرًا وغير قابل للنفاد.

كبرتْ معنا الأشياء كأفراد من العائلة، كنا نجد عينات من أغلفة الشيكولاتة التي كان يشتريها لنا موضوعة في ملف، أشرطة كاسيت مسجل عليها أصواتنا وصراخنا أثناء اللعب، دون أن ندري أنه يقوم بحفظها أيضًا. كان الجمعة يوم المفاجآت عندما نستمع إلى أصواتنا التي عبَرت مجالنا المرئي لتنفصل في مجال آخر دوننا، وفي كل مرة نتفاجأ بها حتى بعد أن حفظناها، كان أبي مهووسًا بحفظ كل ما يتعلق بنا، وكنا نندهش مما يقوم به، ولم نعلم وقتها أن التكنولوجيا ستأتي يومًا وتجعل الناس تهتم بتوثيق لحظات حياتها. لقد كان الاحتفاظ باللحظات هاجس والدي في مواجهة النسيان.

دولابه وأدراج مكتبه التي تنبعث منها رائحة المكسّرات والحلوى، عالمه الذي يبقيه ممتلئًا وسِريًا من أجلنا ليجعلنا في حالة لهفة وترقّب دائمين لاكتشاف ما يخبّئه، ويعطينا بالقدْر المطلوب حتى لا نُصاب بالشبع والملل منه، ويظل مذاق الفستق في لساني إلى أن يأتي يوم جمعة آخر، وقد يضاف في أحد أيامها رحلة سريعة

لمتنزه وحديقة صغيرة في حارتنا تبعد قرابة ميلين عن منزلنا. كان في الحديقة أرجوحة واحدة وزلّاقة، ودوَّارة كما كنا نطلق عليها، كان أحدنا يقف ويدفعها بكلتا يديه لتدور بنا، كان المتنزه بدائيًا وفقيرًا، ولكنا كنا نراه عالمًا ممتعًا، الشارع الطويل نقطعه خلال نصف ساعة للوصول إليها، ولا بُد أن نسير خلف والدي تمامًا على بُعد خطوتين منه، كان والدي صامتًا في أغلب أوقاته، تكفينا منه إشارة لنفهم ما يجب علينا أن نقوم به. الشارع ترابي، لهذا كان يحرص على أن يكون سيرنا هادئًا حتى لا نثير الغبار خلفنا، وكي لا تتسخ ملابسنا. كذلك الحديقة لم تكن مزروعة، شجرة تين فقط، وأخرى لا تطرح شيئًا سوى ثمار جافة وصلبة لم أعرف نوعها.

حديقة حارتنا هذه كانت شيئًا ممتعًا أضاف لنا قليلًا من الرضا عن هذه المنطقة، إلى جانب مصنع الغزل والنسيج في تلك الفترة، ولم يكن يغيّر جو منزلنا المعتاد سوى زيارات الأقارب لنا بين فترة وأخرى.

حارتنا هذه لم أحبها يوم أن انتقلنا إليها في أوائل الثمانينات، فقد سكنّا من قبل في وسط المدينة، حيث الحركة والأسواق المنتعشة والمحلات المُضاءة على بُعد شارعين فقط من بيتنا، كنا نجد أنفسنا في حي القاع، وكان يطلق عليه «قاع اليهود»، ومع الوقت حُذِفت كلمة اليهود ليصبح قاع العلفي. لكن ظلت جدّتي تطلق عليه قاع اليهود كلما جاءت لزيارتنا، وكنت أسألها: أين هم اليهود، فأنا لم أرهم في حياتي.

– زمان يا ابنتي كانوا موجودين، كنا نعرفهم من زنانيرهم (خصلتا شعر متدليتان من الصدغين) وكانت لهم حوانيت صغيرة يبيعون فيها بضائعهم ومشغولاتهم اليدوية، ولهم بيوتهم المعروفة المبنية من الحجر والطين.

وأضافت جدتي:

– ذات مرة كنت أتجول مع والدتي في حوانيت القاع، فأصابت والدتي وعكة خفيفة، فقد كانت حاملا تعاني من الغثيان، فأخذتنا إحدى نساء اليهود إلى منزلها، وكان الجزء الخلفي من حانوت زوجها المتصل به، دخلنا من باب خشبي صغير، وكان علينا أن نحني ظهورنا لندخل، فأجلستنا بوجه بشوش في وسط الدار(الشماسي) وهي صرحة المنزل المفتوحة، وقدمت لوالدتي خبزًا ساخنًا تنبعث منه رائحة حطب التنور، وكوبًا من قشر البن، كان طعمه لذيذًا ومنعشًا.. ونشأت بعد ذلك صداقة بين والدتي وتلك المرأة، وكنا كلما جئنا إلى صنعاء يجب أن نلتقي بها، وبدأنا نتعرف على حياة اليهود، فدخلنا منازلهم المتلاصقة ببعضها، وارتبطتُ بصداقة مع بناتهن، فعلّموني ألعابهم الشعبية، وما كان يغريني هي لعبة الغُمّيضة، فالغرف المتداخلة ببعضها والأسقف المتقاربة تتيح لنا الاختباء لأُكمِل متعة البحث، وكانت عائلتها من آل حاروش، وهم من العائلات التي سكنت القاع حين كان سهلًا فسيحًا عندما أخرجهم إليه حاكم صنعاء.

كنت أستمع لحكايات جدتي الكثيرة عن علاقتها بهم، وظلت بعد أن غادر اليهود وباعوا كل منازلهم وحوانيتهم في القاع تذهب لتقتني المصوغات الفضية، وتحمل معها مشغولات صنعاء القديمة لتبيعها لنساء قريتها، وتهدي البعض لقريباتها.

لقد حزنت جدّتي كثيرًا حين جاءت بعد فترة من الزمن ولم تجد صديقتها اليهودية وجيرانها، وتغيّر أصحاب الحوانيت، لكن ظلت آثارهم ومنازلهم إلى الآن.

أمّا أنا، فارتبط القاع عندي بذكرى ضياعي في أسواقه، حين أخذني والدي معه، وطلب مني أن أنتظره أمام سوق السمك، ليأتي بمحفظة نقوده التي نسيها في السيارة، ولكني أمام تلك المحلات وحركة السوق والباعة، مشيت بضع خطوات لأتفرج، ولم أشعر بنفسي وأنا أجول في ذلك السوق، ولم أنتبه إلى أنني قد نسيت المكان الذي تحركت منه، فحاولت أن أعود وأن أتذكر أي طريق سلكت، وبدأت في الصراخ والبكاء، وتَحلّق حولي مجموعة من النساء وحاولن تهدئتي، إلى أن أطلّ وجه والدي المذعور، وهو يسألني:

- ما الذي يبكيكِ كل هذا البكاء؟ لم أتأخر عنك.

وحين أجبته بأني قد تهت في السوق.

ضحك قائلًا:

- كيف تهتِ؟ أنتِ لم تتحركي من مكانك!

صعدنا أنا وصديقتاي «منال» و«خاتمة» إلى سطح منزلنا لنراقب الضيف القادم من المطار، وقفنا نحاول أن نبلغ بأنظارنا أول طريق مدخل الحارة، قالت خاتمة:

– هل هو شاب أم عجوز؟

لم أهتم لسؤالها؛ لأني قد رسمت له صورة من خلال صوره القديمة التي معنا، لكني أجبتها:

– نعم، لا يزال شابًا، لكنه شاب كبير.

– ماذا يعني شاب كبير؟

سألتْ منال وهي تضحك

– أعني أنه رجل وليس مراهقًا.

قالت خاتمة:

– لو كان وسيمًا سأفكر بالزواج منه، خصوصا أنه عدَني.

ردت منال:

– لا تقلقي، بعد الوحدة سيأتي الكثير من الشباب العدَني، المهم أمك شوعية ترضى أن تزوجك واحدًا منهم.

– لكن أمي لا تحب لهجتهم، تقول إنها مايعة، لكن من الممكن أن تتغير بعد أن يستقروا هنا... هههههه.

ضحكنا من حديث خاتمة، وقد بدأت ترسم أحلامًا تجاوز حدود أسوار حارتنا، فأمّها شوعية تخطط لها زواجًا من رجل ذي مال، أو يمتلك عملًا حكوميًا مرموقًا.

– منال لا تفكر في الزواج أبدًا، لأن أباها يريدها أن تكمل دراستها الجامعية وتصبح دكتوره، أمّا أنا فلا أحب الدراسة. عقّبت خاتمة.

– وتفكرين في الزواج فقط؟

– أحيانًا.. إذا شاهدات فيلمًا رومانسيًا.

كنت أتحدث معهن ونظري مصوّب إلى سيارة انعطفت نحو شارعنا، فقد كان والدي جالسًا بجانب السائق، وقلت لهن:

– يا بنات لقد وصلوا، فلنستعد.

نزل والدي مع السائق لينزلا الحقائب، ووقفتَ بجانبهما لتحمل معهم حقيبة على ظهرك، وأخرى علّقتها على جانبك، وفُتِح باب منزلنا لاستقبالك.

ظلت منال وخاتمة تراقبان الضيف من السطح إلى أن دخل، وخاتمة تقول:

– واو! إنه وسيم! أول مرة أرى رجلًا يلبس بدلة رسمية وبيضاء أيضًا كأنه عريس.

– استحي يا بنت.. لو تسمعك أمكِ ستخنقك. اذهبي أنتِ، ونحن سنراقب الاستقبال العظيم من هنا.. قالت منال.

أعادتني جملة منال هذه لمشهد خروجنا لاستقبال الموكب الرئاسي القادم من الجنوب بعد اتفاق إعلان الوحدة، بدا المشهد واضحًا وأنا مُمسِكة بذراع معلّمتي نترقب مرور الموكب الرئاسي، نظرة واحدة حين رأينا اليد الملوّحة للجماهير.. كانت يد رئيس الجمهورية.

نزلتُ مسرعة، وكان وصولك استثنائيًا، أتيتَ بكامل بهجتك وعنفوانك، بحقائب ممتلئة وكأنك جلبتَ بداخلها كل أحلامنا، بعد أن عُلقت راية الوطن الجديد في ساحة مدرستنا وفي الشوارع، ولحظة أن رأيتك أدركتُ معنى تلك الراية، راية دم واحد لشعب خاض انكسارات متتالية، فكنتَ لنا أول ثمار وحدتنا.

وكما رأيتك اليوم، كنتَ فيما مضى في أحلامي، أحد شخصيات عالمي الخاص، كما كانت شخصيات ذلك المنزل الذي كان على بُعد شارع منّا، ليس كمنازل الحي حولنا، بل كان يبدو وكأنه قطعة من بناء أوروبي، يختلف بناؤه عن نمط البناء المعتاد في صنعاء، حيث كان أشبه بالفيلا، ذا طابقين وحوش واسع، بأشجار كبيرة تتدلى أغصانها خارج سورها، وتتفرع في اتجاهات الحديقة الأربعة.

قناديل متدلية من الشرفات توحي بالدفء، وستائره من قماش الساتان الأبيض تنزل كشلال على نوافذه العالية، أمّا طلاؤه الخارجي الأبيض فقد جعلت منه الأمطار لوحة فنية تمتزج فيها الخطوط والبقع، ليتخيلها من يتأملها وكأن ريشة رسام قد عبَرت عليه، وتتغير ألوان تلك البقع والخطوط مع تغير الضوء المنعكس عليها ليلًا ونهارًا.

فأتصور أن بداخله عالمًا سحريًا ما، أو كائنات غريبة تتجول بصمت، أمّا الضوء المختبئ خلف ستائر النوافذ، فيوحي لي بوجود شخصيات ليست كالتي نراها في الشارع، قد تكون فتاة بجناحين في غرفتها البنفسجية، ذات بشرة كالماء، تصنع دُميً ملونة من القماش، وترسم حدائق وأودية، وتتنقل عبَر غرف المنزل الكبير بعربتها الصغيرة يجرها حصان أبيض صغير، وقد كانت يتيمة ووحيدة.

وفي مرة تخيلتُ أحدهم يحرك حطب المدفأة في الطابق الأول، فكانت النار تتوهج وترسم ظلالًا على الجدران، كان ظِل رجل طويل، يضع سيجارًا في فمه، يمد يده إلى أحد رفوف مكتبة وضِعت أمام المدفأة

ليأخذ كتابًا ما، ويجلس على أحد المقاعد أمام النار، فكان يسري دفئها في جسدي وأنا أرى ظلي قد انتقل إلى جانب ظله ليقرأ معه ذلك الكتاب، كان ظلًا يشبهك تمامًا، وحين رأيتك اعتقدت أنك ابتُعِثت من جدرانه، أو تسللتَ من إحدى نوافذه، أو أنك ذلك الظل الذي كان يجول في غرفة مكتبه يقرأ أحد كتب الشعر.

ولكني حين تعرفت على منال بعد فترة من التحاقنا بالمدرسة، لم أتوقع أنها من سكنت ذلك المنزل مع والديها وأخيها، وانتهى عالمي الخيالي، لكن الواقع الذي أتى بمنال وعائلتها إلى حارتنا، كان كريمًا معي، لأنهم عائلة تختلف كثيرًا عن أهل الحارة، فوالدها كان قياديًا جنوبيًا، ووالدتها أيضًا كانت إحدى العاملات في مجال حقوق العمال والمرأة والتعليم.

اكتسبت منال ثقافة كبيرة من والديها، وجعلتني أقرأ مثلها في أشياء كثيرة، وكانت الوحيدةَ التي تجعلني أفكر وأناقش، كما أن والدتها كان لها تأثير كبير في تفكيري.

صارحتها يومًا بعد أن مرّت سنوات على صداقتنا، وكنا حينها في المرحلة الثانوية:

– هل تصدقينني أني كنت أتخيلك فتاة يتيمة، تسكن في المنزل الذي تسكنونه؟ تتذكرين عندما كنت أحكي لكِ عن خيالاتي حوله؟

ضحكت منال وقالت:

– هذا طبيعي لأننا نحب أن نهرب من الواقع.

ربما اليُتم فكرة استعذبها عقلي في فترة ما من طفولتي، فبعكس ما هي قسوة أن يكون الإنسان يتيمًا، كنت أجد أني مقيدة بأبوين لا يتفقان إلا نادرًا، فما يضيرنا إذًا أن يكون وجودنا في الحياة غير مشروط بأحد؟ وقد يكون اليُتم نوعًا من الحرية، فيكفي أن تجد نفسك في الحياة لتحدد قوانينك الخاصة. فكّرتُ حينها بأنه هبة لتكون قويًا.

– ربما تكونين قد جعلتِ من فتاة المنزل يتيمة، لتكون مثل صديق توم سوير هههههه.. فقد أحببت شخصيته في المسلسل، ألستُ على حق؟

– ولم لا؟ يعيش فوق شجرة وحده دون أن يكون لأحد شأن في حياته.

– لكنه ولد وليس فتاة، فنحن الفتيات لا يمكن أن نتخيل أن نكون وحدنا في هذا العالم.

– كان خيالًا أحببته، يكفي أن يكون هناك على مسافة كافية مِني واقع أختلقه، دون أن يكون لأسرتي والمحيطين بي شأن فيه.

حين سألتَ والدي: توقعت أنكم تسكنون وسط العاصمة؟

أجابك:

– كان منزلنا قبل هذا يقع في حي القاع، وكان معظم من سكنه من الموظفين والمثقفين. وهم النخبة الصاعدة بعد ثورة الشمال والجنوب، أنت تعرف أن كثيرًا من العدنيين انتقلوا للعيش هنا، وخصوصا بعد أحداث يناير. أمّا هذه المنطقة فلم تدخل ضمن التخطيط حين انتقلنا إليها، فكانت البيوت رخيصة الثمن، وكان أغلب سكانها من الأرياف والقرى، وقد كانت في بداياتها بعيدة بالنسبة لنا عن صنعاء والمناطق التي أُنشئت حولها. أمّا الآن فلم تَعُد بعيدة مع وفرة وسائل المواصلات.. هل أتعبتك المسافة من المطار؟

– لا أبدًا، استمتعت بالطريق، فقد مررنا بمناطق زراعية، ولأول مرة أشاهد مزارع العنب، بل وتعرفت على أشجار القات هنا، فهو مختلف عن القات في الجنوب.

كان في صوتك شيء من الغرور، لكنه غرور جميل، وانتابتني مشاعر مربِكة، مزيج من الارتياح والغيظ منك. نظراتك تَعِد بشيء غير عادي، يبدو أني أرسم أشياء أو أتخيل ما كانت تريده نفسي. كانت مشاعري تسبق حكمي على الآخرين، لم أمتلك الحذر بعد، كنتَ أمامي كأبطال الحكايات التي أدمنتُ قراءتها، وحضرتْ حينها صديقتي منال في عقلي لتهمس بما تقوله لي دائمًا: ابتعدي عن خيالاتك.

– يبدو أنك متشوق للقات.

– ليس كثيرًا، القات ممنوع في عدن طوال أيام الأسبوع، ما عدا يوم الإجازة الذي يسمح ببيعه وتناوله، تعوّدنا على هذا النظام.

كان مجيئك قبل أن تكتظ العاصمة بموجة النزوح البشري أثناء حرب الخليج التي ألقت بمليون يمني خارج حدودها، ليعودوا إلى بلدهم بعد سنوات طويلة من الغربة.

والدتي كانت سعيدة جدًا بمنزلنا في حارتنا هذه، لأنها ظفرت به بعد فترة من معاناة التنقل في بيوت الإيجار.

فمارستْ ضغطًا وتهديدًا كبيرًا على والدي ليشتري لها منزلًا، ولو كان في غابة، حسب قولها، المهم أن يكون مِلكًا لنا.

وأنشأتْ خلال فترة بسيطة علاقات وطيدة مع نساء الحارة، عائلة القباطي، وبيت ردمان، وزوجة عياش، وبيت الحفاشي، وبيت الدميني وغيرهم. لم تكن علاقة جوار فقط، بل صحبة يومية بين جاراتها أشبه بتجمع

حزبي متنوع، ففي الصباح بعد أن تطمئن كل واحدة من أعضاء حزب أمي لنظافة منزلها، وإتمام مهامها اليومية، يخرجن ويجتمعن كل مرة أمام بيت إحداهن يشربن الشاي والقهوة، لم يكنّ يضعْنَ على رؤوسهن غير الطرحة الملفوفة كعمامة، مع جلابيبهن الطويلة الملونة، يجلسن بكل راحة يتجاذبن أطراف الحديث، لم يكن هذا الطقس المفتوح ليتسنّى لأمي في حيّنا السابق الواقع على شارع رئيسي.

مع الأيام أصبحت لقاءاتهن مقهىً صباحيًا يتبادلن فيه الكثير من الأخبار والمعلومات التي يكتسبنها من سماع برامج الراديو والتليفزيون، والمشكلات المتعلقة بأولادهن، بل كانت أخبار أزواجهن موضع نقاش دائم، ولا يكاد يخلو اجتماعهن من تنظيراتهن في أمور السياسة، وإعادة أحداث المسلسل المسائي الذي يتابعنه جميعًا، وعادة ما يمر عليهن الباعة المتجولون بعرباتهم المتخمة بالبضائع، وكنّ ينتظرن هذه الفقرة اليومية، يأتي البائع الذي كنا نطلق عليه (فرّجنا) ونسمعه من بعيد وهو ينادي «فرررررجنااااا»، ليقمن معًا ويقفن أمام عربته، ينبشن البضائع وكأنهن يشاهدن صندوق الدنيا.

إحدى جارات والدتي، اسمها «شوعية» تعمل في مصنع الغزل والنسيج، كانت تنتظر يوم إجازتها لتستمتع بهذا الطقس، وعلى رغم جمالها، فقد كان اسمها بالنسبة لي لغزًا مربكًا يحيلني إلى معنى معاكس، لأن كلمة شوعة بالصنعاني تعني القبيح، لكنها كانت تعرف أن معناها يعني شجرة البان.

كانت شوعية تغزل حكاياتها من الخيوط، وكأنها تقف أمام إحدى ماكينات الغزل، فقد ورثت عملها في المصنع من والدتها التي شهدت أولى سنوات تشغيله في مطلع الستينيات، أخبرتها أنه أول مصنع في شبه الجزيرة العربية، كانت النساء الملتحقات في أقسام المصنع يشعرن بالفخر، وشوعية أكثرهن اعتزازًا بانتمائها له بالوراثة، فهي ترى أنها في الصرح السبتمبري، فالمصنع رمز الثورة.

وتزداد فخرًا حين تدعو صديقاتها للقيام برحلة إليه، وتنصحهن بشراء الأقمشة من هناك، وخياطتها لمن أرادت أن تفصِّل ملابس المدرسة لأولادها، وحين كانت والدتي حاملًا في شهرها الثامن أشارت عليها بشراء قماش من القطن الطبيعي، يُطلَق عليه اسم (ململ) وهو قماش أشبه بالشاش الأبيض، وملمسه ناعم على بشرة الطفل.

ورأيتُ لأول مرة مكانًا مختلفًا عن مدينة الملاهي التي أحبها حين صممت على الذهاب معهن للمصنع، تعلقت بتلك الخيوط التي تتحول إلى أقمشة بألوان متنوعة وزاهية. عالم سحري ارتبط بنساء يقفن خلف تلك الآلات، فاخترت قماشًا ملونًا لتشتريه والدتي بجانب قماش القطن الذي ستفصّله للمولود الجديد. حينها بدأت أحب حارتنا لأن فيها شوعية وذلك المصنع الشامخ بمدخنته.

لم تنجُ حارتنا من احتضان العديد من تلك الأُسَر العائدة، فكان منهم من استأجر، فارتفعت أسعار

البيوت، والبعض استطاع أن يشتري مساحات من الأراضي، وما كان يطمئنني أن قِبلتي الوحيدة في هذه الحارة لا تزال موجودة، أعني ذلك المنزل، حيث صديقتي منال ومكتبتهم.

حارتنا لم تمتلك حماية إيديولوجية كصنعاء القديمة التي ظلت تتحايل على الدخلاء لتحتفظ بخصوصيتها التاريخية، حتى بعد أن غزت وسيطرت أفكار الحركات الإسلامية الجديدة على أغلب المناطق الناشئة.

فاليمنيون القادمون كانوا بلهجة مختلفة لأول مرة أسمعها، تعرفناعلى إحدى تلك العائلات ممن استأجروا منزلًا بالقرب منّا، وتقرّبت والدتي من ربّة البيت، واسمها «غانية»، في أحد مجالس نساء الحارة، كانت امرأة ممتلئة الجسم، طويلة القامة، ذات عينين واسعتين ممتلئتين بالكحل، ووجه بيضاوي مشرب بالحمرة، كان ملبسها متواضعًا، لا تضع إكسسوارت النساء المعتادة، شفتاها تتحركان بشكل دائم وكأنهما تتلوان شيئًا ما.

مالت والدتي إلى هذه المرأة الوافدة، وكانت تقول عنها إنها امرأة صالحة، لا تغتاب أحدًا، وتذكر الله دائمًا.

أمّا شوعية فلم تحبها، كانت تصِفها بغانية المغالية. كعادتها شوعية تبتدع أوصافًا غير معتادة في الوسط النسائي لحارتنا، سألتْها زوجةُ القباطي ماذا تقصد بالمغالية؟

– تُغالي بتُقاها، وتشعرنا بأننا عاصيات لله.

– أنتِ لم تحبيها حين قالت لك لا تتحدثي عن زوجك بسوء،
ولا ترفضيه إن دعاكِ لفراشه مهما حدث.

– تقصد أن أقتل نفسي من أجل استمتاع زوجي، حتى وإن كنت متعبة أو لم تكن بي رغبة، يعني نحن النساء آلات مثل آلات المصنع.

كانت شوعية هي الجبهة المعارضة، حين ترى تأثُّر النساء من طارئ أو متغير دون أي تفكير، تظل هي العقل المحلل لما يدور.

وأصبحت المجالس تضم خليطًا متنوعًا من هؤلاء النسوة القادمات، وكان منهن من أنشأن كيانات دينية كمراكز لتحفيظ القرآن، والبعض منهن اتجهن لمشاركة أزواجهن في التجارة الحرة، فانتشرت البقالات والمحلات التجارية المختلفة.

كنا نرى غانية وابنتها بلباس أسود سميك، ولأول مرة نرى الجلباب الذي يُسدِلنه من قمة الرأس ليصل إلى الركبتين، تحته عباءة سوداء أيضًا، تجر معها أتربة الشارع، وقفازات تغطي الكفين.

نساء حارتنا كنّ معروفات للجميع، رجالًا وأطفالًا، لا يحتجبن بتلك الطريقة، يقفن ويثرثرن في الشارع مع الجار والقريب، لكل واحدة منهن طريقتها في وضع لثام وجهها الذي يبدي أكثر مما يخفي، وبنظرة

العينين الضاحكة، والستارة الصنعانية الملونة.

وطغى السواد في حارتنا بعد الدروس الدينية الأسبوعية التي كانت تعقدها غانية في منزلها، وازداد عدد النساء المستمعات لحلقات دروسها.

لم نكن نميز سوى من بقيت على ما كانت عليه، وكان أغلبهن من النساء الكبيرات في السن، وظلت شوعية تحتفظ بستارتها الملونة، ولثام وجهها الشعبي، حين أوقفتها غانية التي امتد سوادها لأغلب النساء، لتقول لها:

– اتقي الله يا شوعية، الله أمر بإخفاء الزينة، عيناك الجميلتان تفتنان كل من يراهما، وذراعاك ظاهرتان من الستارة، وعليهما نقش الحنّاء، وهذا لا يرضي الله ولا رسوله.

– أمانة عليكِ اسكتي، هذا هو حجابي من يوم أن عرفتُ جدتي، لم يعترض عليه شرع أو دين، يكفي أنك قد حوّلتي النساء إلى غُربان.

تركتها وهي تستغفر وتدعو لها بالهداية. لم تكن شوعية تحبذ تلك المبالغة في الحجاب، فعلى الرغم من غيرتها الدائمة على زوجها من النساء، فإنها تثق في نفسها كثيرًا، وتعلم أن زوجها، وإنْ تَطلّع فيهن، فإنه يكون قد أشبع عينيه واكتفى بذلك، فلن يجرؤ على فعل ما يضايقها. المرأة الوحيدة التي كانت تخاف منها على زوجها هي فريدة، فقد أدت شوعية دورًا مهمًا في إقناع فريدة بضرورة زواجها قبل سنوات.

أمّا جارتنا حضية، فقد كانت أكثر صرامة من شوعية تجاه الدخيلات، بل كانت ترى أنهن أتين معتديات على مكانتهن في المجالس. حضية من نساء صنعاء القديمة اللائي كنّ أكثر انفتاحًا، وتمتلك حسًا فنيًا حتى في ارتدائها لملابسها بالطريقة الصنعانية التي تدل على الغنج والرفاهية، وفي الآن نفسه لم تكن لترضى أن تتنازل عن صوتها العالي وهي تدندن بأغاني (أبو نصار) و(الحارثي) وغيرهما من الفنانين الشعبيين في الشارع، كان الجميع قد تعوّد على سماعها، وكنت أصادفها تقف أمام دكان العديني، وكان من الدكاكين القديمة في حارتنا، وصاحِبه العجوز يحمل ذاكرة قوية ليشاركها في حديثها عن الأغاني القديمة التي كانت تُسمِعه إياها، أستمتع إن صادفتهما معًا، أجلس على دكة الباب، وأنظر إلى تعابير عينيها وحركة رأسها وهي تُلقي بألحان صنعانية صعبة الأداء، ولم تكن متداوَلة في قنوات الراديو إلا نادرًا.

هي من بَنَت منزلها في حارتنا هذه بعد أن أخذت إرثها من إخوتها، وكانت تُشرف على العمال منذ الصباح الباكر وحتى غروب الشمس. امرأة قوية لا تحب الاختباء، ولم تكن ترى في نفسها عورة، كما آمن بهذه الفكرة بقية نساء حارتنا، بعد تعاليم غانية الدينية.

كانت الأجواء مختلفة بعد أن أُعلن رسميًا اتفاق توقيع وثيقة الوحدة بين الشطرين، ولم يتضح لي معنى ذلك التعبير الذي بدا على وجهك بعد أن مرت أيام لم تأتِ فيها إلى بيتنا، في الوقت الذي تعوّدنا فيه على زيارتك اليومية منذ وصولك واستقرارك في أحد فنادق وسط العاصمة. كنتَ مشغولًا بالتعرّف على الوسط الإعلامي واللقاءات ببعض من سينتقلون للعمل هنا بعد توقيع اتفاقية الوحدة، ولم تخلُ تعابيرك من القلق. حينها قال والدي:

– هل تظن أن الاندماج الوظيفي خيار سليم؟

– ما لمسته من لقاءاتي هو الفروق الجوهرية في تناول القضايا من خلال الإعلام والصحافة بين الشمال والجنوب، اختلاف في طريقة التفكير والوعي. ويبدو لي أن القادة قد تسرعوا في إعلانها دون أن يضعوا صيغًا أوَّلية للعمل المشترك.

– هناك اختلافات كبيرة بين الشمال والجنوب، إن لم يؤسسوا من الآن نظامًا جديدًا يستوعب تلك الاختلافات فسيصطدم الجميع.

كنت أستمع ولم أفهم ما الذي يدور خلف هتافات تلك الجماهير وفرحة الشعب، وأنا أرى في عينيك وملامحك قادمًا مشرقًا، أراه في قلوب طلاب المدارس الذين أمسكوا الأعلام وردّدوا الأناشيد الوطنية.

وكعادتك، جلست في الزاوية التي اخترتها في مجلس الضيوف منذ وصولك، اتكأت على جانبك الأيمن وبدأت في تناول أوراق القات الذي أصبح عادة يومية بالنسبة لك.

قمت بتشغيل أغانيك المفضلة.. أمّ كلثوم، ومحمد عبد الوهاب، وأغاني أحمد قاسم، ومحمد عبده زيدي، وبدأت أستمع معك لأغانٍ أسمعها لأول مرة، مثل أغاني نجاة الصغير، ونجاح سلام، وسيد درويش، فأصبحت وجبتنا اليومية، وطقسًا إلى ما بعد زواجنا بأشهر حين بدأ يتغير شغفنا تجاه كل شيء. لم تنتهِ عادتنا في سماع الأغاني، لكن ما داخَلَها من تشويش إثْر ظهور نوع آخر أُطلِق عليه «الأناشيد الإسلامية»، أثّر في علاقتنا وغيّر مجراها، الغريب أنك لم تكن تسمعها، أنا من انجذبت إليها، فقد كانت تلعب أيضًا على المشاعر، مشاعر البطولة والمجد الذي كان يحلم هذا الجيل باستعادتها. كل شيء يلعب على العاطفة كتعويض وهمي عن وطن نشهد انهياره دون أن ندرك.

الحب أيضًا كان حلمي، وله موسيقاه وأغانيه الخاصة، لكنه ساحة حرب أيضًا، وتحقيقه يحتاج إلى بطولة لا تختلف عن بطولات الجهاد والموت، فأية حرب سأخوضها؟

الحياة الأخرى أيضًا تحتاج إلى الكثير من الحب والعاطفة، تحتاج لتحياها وتنتقل إليها – وأنت ما زلت على

قيد حياتك الأولى – إلى سلّم موسيقي، وانفجارات عاطفية، وخيال يبدأ من لحظة إنكارك لذاتك وعدم استحقاقها لمتع هذه الدنيا، يتطور الخيال مع مرافقة الموسيقى، وتنشأ الحياة الأخرى البديلة والخالدة، لتكون وطن البسطاء والمنكوبين.

هكذا رافقتنا هذه الأغاني في هذه الفترة التي انفجرت فيها الحروب، لكن متى لم يكن هناك حروب؟ متى كانت هذه الأرض خالية من أسلحة الإنسان؟! والحقيقة هي أننا نولد بحروبنا وإرثها الممتد، لا فرق بين أغاني الحب والرومانسية وبين أغاني الحرب وغيرها، كلها تستعير مشاعر الإنسان وعاطفته.

أمّا أنا فلم يكن لي خيار، بل كنت متأثرة بالفن عمومًا، منساقة للدنيا وللآخرة، كل ما كان يشغلني في هذه الفترة هو أنت، كيف أحِبّك؟ وبأية طريقة؟ وكيف ستحبني؟ بأي أغانٍ سنكون معًا؟! كل شيء كان جميلًا مستشرفًا الحياة مع أغاني محمد عبد الوهاب، وأمّ كلثوم. وفجأة غُصنا في ملاحم الأناشيد، ومحاضرات الشيوخ، وكُتيبات تُهدَى مجانًا لنبقى قريبًا من القبر.

لا أتذكر حينها كيف أصبحنا وحدنا ولأول مرة بعد هذه الفترة من قدومك، وأين ذهبت والدتي التي اعتادت الجلوس معك، لا أتذكر شيئًا سوى أنك فاجأتني حين نهضتَ من مكانك واتجهت نحوي، ومددتَ لي كفّك لأنهض من مكاني، وقلتَ لي كلمة واحدة فقط دون أية مقدمات: «أحبّك»، هل تحبينني؟ كلمة «أحبّك» ألقيتَ بها هكذا، دون مقدمات، ممزوجة بحزن خفي، أحسسته حين أخذتَ كفي ووضعته على صدرك فانطلقت من جوفك تنهيدة طويلة!

لم أستطع الرد، وتسمّرتُ وأنت تضع كفّيك فوق ذراعي، إلى أن انتشلنا جرس الباب وأنقذني من مهمة إيجاد الإجابة المناسبة، وكأن من يطرق الباب قد وصل إلى مسامعه صدى الكلمة التي قلتَها لي قبْل لحظات، دخلتْ والدتي وهي تخبرنا بصوت مستبشِر:

– هل تابعتما الأخبار؟

– نعم، كنا نتابع النشرة، مذيعة من عدن، وهي زميلتنا.

– مذيعة جميلة وبشعر أشقر، ذكّرتني بفريدة، خطيبة أخيك سابقًا.

– نعم تشبهها، ما أخبارها؟ لم ألتقِ بها أبدًا منذ مجيئي؟

– بخير، تزوجت منذ ثلاث سنوات من أحد الصحفيين.

– لكنها لم تَعُد تكتب في الصحافة كما كانت.

– تعلم أنها تزوجت بصنعاني.

– نعم.. فهمت.

وسألتك والدتي إن كنتَ قد حجزت تذكرة العودة غدًا إلى عدن، فأجبت بحروف متوترة وأنت تنظر في عيني:

– نعم، طائرتي غدًا، الساعة الثانية بعد الظهر.

لم أفهم في تلك اللحظة معنى النظرة التي تبادلتَها مع أمي، ولكني شعرت أنكما متفقان ضمنًا على ما حدث بيننا، واكتشفتُ بعدها أن حياتنا قائمة على الاتفافات الضمنية، فالطرف الآخر الأساسي في الاتفاق غير موجود، أو مموّه.

وُضِعتُ حينها أمام عجزي عن تفسير حقيقة ما أريده أو أشعر به نحوك، حتى مشكلاتنا التي حدثت فيما بعد، لم تكن واضحة أسبابها، فقد كانت أغلبها تثار ممن حولنا، وكل ما حولنا متوار، حتى الخوف من الحياة أيضًا كان يتوارى باتفاق جمعي، وهكذا أصبح زواجي منك اتفاقًا لم أسمعه مباشرة من أهلي أو من أهلك.

لم يحدث أن أحدًا منهم عرض عليّ فكرة ارتباطنا، أو سألني عن رأيي، أو حتى عن إحساسي نحوك الذي لم أصل معه إلى مرحلة تأكيد حقيقته. كان كل شيء يسير بمجرد أنك أبديتَ اهتمامًا خاصًا بي منذ البداية.

تحمّست أسرتي في هذه اللحظة لشخصك، فأنت كامل حسب رؤيتهم، وخوفك من ألا تجد نموذجًا آخر لفتاة لم تمرس الحياةَ بعد، فأحببتَ معها تلك المشاعر البدائية مني، وربما كنتُ الفتاة التي رأيتَ أنها تناسب مرحلة حياتك الانتقالية.

«أحبّك» كلمة أخذتني إلى منطقة أخرى معك، فلم تعد بعدها القريب الذي آنَس بالجلوس معه، أو الصديق الذي أفضّل صداقته لأحكي له عن كل شيء، الكلمة التي قلتها الآن رفعت سورًا بيني وبينك، ورسمت نقاطًا حدودية، فالنظرة منك سيكون لها معنى آخر، والحديث سيكون محسوبًا، حتى طريقة تعاملي معك ستتغير، فلماذا أنهيت ذلك القرب غير المشروط بتلك السرعة؟ لم أكن أريد أكثر من زياراتك لنا مُحمّلًا بحكاياتك، بعالمك الذي كنتُ أحسب أنه سيكون كما حلمت به.

تسللتُ في صباح اليوم التالي وأنت نائم، وكان هذا اليوم هو الوحيد الذي قررتَ فيه أن تقضي ليلتك عندنا، دخلتُ لأكتشف طريقة نومِك، وأشم رائحة عطرك المنتشرة في هواء الغرفة، ربما لأتأكد من أنه أنت الذي كنت البارحة تُصرح بوجودك في حياتي بطريقة أكثر تعقيدًا. كنت أحاول أن أرسم وأنا أنظر في وجهك النائم، صورتي المستحدثة كزوجة، ولكني لم أتقبل هذه الصورة، فماذا يعني أنكم خلال شهرين تقررون مصير حياتي؟! ربما كان نوعًا من المفاجأة سينتهي مع الوقت، ربما كانت الدهشة الأولى، كنت أفضّل أن نبقى بعيدًا عن أي عقد واتفاق، وأن تكون فقط ممن يأتون ويذهبون، ونبقى على شوق لرؤيتهم

مرة أخرى. لم أفهم هذا التضارب في شعوري.

فاجأني صوتك الساخر وأنا أستدير لأخرج من الغرفة:

- ماذا كنتِ تراقبين!؟

- أمي طلبت أن أرى إذا كنتَ قد استيقظت حتى تتناول الخبز وهو لا يزال ساخنًا.

- اممممم، رائحة لا تقاوم بالتأكيد، على ذِكر رائحة الخبز تذكرت حكاية يجب أن أحكيها لكم.

جلسنا في المطبخ، والراديو يعلو بأغنية فايزة أحمد «بيت العز يا بيتنا» كانت مقدمة لبرنامج الأُسرة السعيدة، وضوء الشمس ممتزج بدخان الخبز.

كانت عيناك مُحمِرتين من أثر السهر، فأصبحت ملامحك أكثر جاذبية، وجهك حاد يعكس شيئًا من الحيرة، وقلتَ وأنت تتناول قطعة من الخبز الساخن:

- في يوم من أيام طفولتي، بعد منتصف الليل في منزلنا، صحوت على رائحة الخبز، واستغربت لوجود تلك الرائحة، فمَن الذي سيصحو من نومه في وقت كهذا ليصنع خبزًا!

اتجهت نحو المطبخ لأجد أمي ترتدي رداءً أبيضَ لم أره من قبل عليها، وتقوم بفرد عجينة خبز، أشارت بسبّابتها إلى شفتيها في حركة آمِرة ألا أصدر أي صوت حتى لا ينتبه الآخرون في المنزل، كانت هيئتها غريبة، ابتسامة فاترة وهادئة نادرًا ما كنت أراها على وجهها، وجنتاها تلمعان بحمرة طبيعية، أَلْقٌ في عينيها، بقيتُ واقفًا عند عتبة باب المطبخ، أشعر بثِقل في قدمي، وهواء بارد يضرب ظهري. حاولت أن أتكلم لكن صوتي اختفى، كنت أسمعه يتردد في جوفي كالصدى، أو كأني دخلت مجالًا جويًا مرتفعًا. أشارت نحوي تأمرني بالدخول والجلوس، وخطوت بصعوبة إلى أن تجاوزت عتبة الباب، حينها سمعت صوتي من قعر بئر وهو يسألها: أمّاه.. لماذا تصنعين الخبز في هذا الوقت؟

مِن غير أن تنظر نحوي أو تتفوه بكلمة، قدّمت لي طبقًا من الخبز، أخذت قطعة منه، وكان طعمه شهيًا، أكلتُ بنهم، وقلت لها إنه من غير ملح. فنظرت إليّ نظرة أقلقتني، وبإشارة من إصبعها أمرتني مجددًا ألا أتكلم، أتيتُ على كل ما في الطبق، ودون أن أسمع صوتها أمرتني بالعودة إلى النوم.

لم أتذكر في اليوم التالي كيف عدت إلى فراشي، فكّرت بأني كنت أحلم، لكن بقايا الخبز التي كانت عالقة بأسناني أثبت لي أنه ليس حلمًا. سألت أمي في اليوم التالي عن سبب صنعها الخبز في الليل، ولماذا كانت تبدو على تلك الهيئة الغريبة، عرفتْ أنني قابلت فردًا من أهل البيت الذين يسكنونه في الليل، لكنّها لم تكذّب ما رأيت، بل صدّقتْ على كل ما حدث، وقالت إنها نسيت أن تضع الملح!

قالت والدتي معلّقة على حكايتك:

هؤلاء جِن صالحون، يتجولون في المنزل بعد أن ينام أصحابه، ويتصورون على نفس صورنا، ولكنهم لا يؤذون أحدًا، حسب ما كنت أسمعه من حكايات أجدادنا، ونادرًا ما نلتقي بهم.

تذكرتُ بعد سنوات هذه الحكاية، وأثارت تساؤلاتي حين سمعنا بنظرية الأكوان المتوازية، فلماذا لا تكون تلك المرأة التي رأيتَها هي صورة والدتك الأخرى، أو نسخة ثانية منها؟ ولم لا يكون لنا وجود آخر في بُعد آخر موازٍ لكوننا، ينكشف أحيانًا لنا أو لأناس معينين؟ أو أن عقلنا يصنع ذلك الكون، فالجوع الذي شعرتَ به حينها أيقظك من النوم، وخلقَ شخصية موازية لوالدتك بالطريقة التي كنت تريد أن تراها. وجودنا ما يصنعه دماغنا، انعكاس لتصورنا عنه، شجرة خضراء، هواء حار، طريق طويل وآخر قصير، وزمن يتكرر، حتى الزمن الذي نعتقد أنه يجري، قد يكون متوقفًا في الحقيقة.

لهذا كنت أخلقُ حولي عالمًا آخرَ بعيدًا عن هذا الواقع، ولأجل ذلك تصورتك بهيئة ومواصفات خلقها خيالي وشعوري، لستَ وحدك من كنت أخلق له كيانًا يختلف عن واقعه، لأني أحيا بين منطقتين، وأعيش في فاصل بين الحقيقة والخيال، ولا أعرف في أيهما أكون.

أهذا أنت حقًا؟ جسد لا حياة فيه؟! يخيّل إليّ أنك ستنفض عنك هذا البياض البغيض وتجلس إلى جانبي ولو قليلًا مستمتعًا بهذه العتمة المقلقة. هل تشعر بهذه الطريق الممتلئة بالغيض؟ هل تتذكر حين قطعتَها قبل خمس وعشرين سنة بعد أن أزيلت عنها النقاط؟ ها هي تعود مرة أخرى منذِرة بقادم سيئ. لماذا لم يكن حبك سلاحًا تواجه به هذه الحرب، وغادرت دون أن نواجه أو نفهم معنى الحياة التي قضيناها معًا لفترة ليست بالقصيرة؟ أنا فقط من أتحدث الآن معك وجهًا لوجه دون أن أجد منك إجابة. وضع لا يختلف كثيرًا عمّا كنا عليه. هل تعرف أن ليست للطريق الآن المعنى نفسه؟ فهي قبل اليوم كانت وصلًا بين أمنيات وأحلام، كنا نعتبرها طريق المستقبل نكتبه نحن، أمّا طريق الآن فلم تَعُد تصل إلا بين نقطتين فقط، البداية والنهاية، الحياة والموت، تنقلنا من وضع إلى آخر، كما نقلتني من فتاة إلى امرأة متزوجة ثم أرملة أصيبت بشظايا الحب والحرب.

لم يتركنا المسلح نتابع سيرنا إلا بعد أن تأكد من هُوياتنا، وبعد أن قام بتفتيش الحقائب، والبحث خلف الكراسي وأسفلها، وجعل أخي يصعد مرة أخرى ليقوم بركنها بجانب بناء مكعب من الحجر، ونزل مرة أخرى ليأخذه المسلح إلى داخل مقرهم. بدأت أشعر بالقلق والخوف من قرارهم بضرورة عودتنا من حيث جئنا، ماذا سأقول لمن ينتظرون وصول النعش بفارغ الصبر؟ لقد مرت ساعات طويلة ونحن نحاول الوصول لنقطة مدينة الضالع، هذه المدينة التي كانت طريقًا للقوافل التجارية بين الشمال والجنوب قديمًا، تسكنها إحدى قريبات والدتي، ولم نعد نسمع عنها شيئًا، فقد زارتنا مرة واحدة قبل سنين طويلة، ما أتذكره عنها أن لها طفلًا كان يعاني من عيب خلقي في القلب، وكانت امرأة كادحة، تملك أرضًا زراعية، تعتني بها بمساعدة قليل من العمال بعد أن تخلى عنها زوجها وغادر لإحدى دول الخليج، حبها للأرض كان واضحًا من خُضرة عينيها الغائرتين فوق وجنتين بارزتين. كانت الشمس والمطر لهذه الأرض، فما أتت به من محصول عند زيارتها لنا كان دليلًا على عمق ارتباطها بهذه الأرض.

هكذا ارتبط اسم الضالع عندي؛ فالمدن والأماكن كثيرًا ما ترتبط لديّ بالنساء، مثل عدن وفريدة، حارتنا وشوعية، عمتي والمقبرة. هذه الضالع التي لم ندخلها يومًا كانت وجه قريبتنا البائس الذي لم نرَه مرة أخرى.

لم يتوقف هاتفي عن رنين اتصالاتهم المتكررة، بل كانت لهجة كل واحد منهم وكأنها اتهام لنا على تأخرنا، حاولت أن أكتم غيظي، فقلقهم فقط كان من أن تنفضّ صفوف العزاء قبل أن يصل النعش، وليس قلقًا علينا، فكيف لهم أن يكملوا أدوار حزنهم أمام الناس دون وجود هذا الجسد المادي الخالي من الحياة؟! لا يدرِكون أن الإنسان يموت بمجرد أن تنطفئ رغبته في الحياة، حتى وإنِ استمرت أعضاؤه في النبض، وهو

قد غادرها منذ زمن، ولو استطعتَ أن تبدي رأيك الآن في هذه الرحلة المرهِقة، كنت ستكتفي بطلبك أن تُوارَى دون أية ضجة أو نواح، ولكنك ستحظى بأحضان أهلك الأخيرة التي لم تشعر بها منذ وقت طويل، الأحضان التي لن تضيف لك شيئًا لأنك لم تجدها في حياتك، أمر طبيعي فنحن مجتمع لا يجيد الحب، سيتأكدون فقط من مغادرتك لجسدك.

ومن المؤكد أنهم لا يفكرون في مدى حزني ومعاناتي بجانبك، بل صعوبة ما نمرُّ به في الطريق، حتى أنت لا تعلم بما يحدث وما ينتظرنا من قادم مؤسف، وما يستعر في القلوب قبل أن يستعر في البلاد بأكملها. لقد أنهكني غطاء وجهي الأسود، ليتني أستطيع رفع هذا النقاب اللعين لأتنفس جيدًا، فقد توقف تكييف السيارة، وأنا في انتظار خروجهم من مقر نقطة الضالع البائسة كوجه تلك المرأة، ولا أعرف ما الذي يدور بينهم. لو كان أخي يشعر بصعوبة أن تضع لساعات طويلة غطاءً على الوجه، غطاءً لا يختلف عما يحدث من قمع للشعب بأكمله، يجب أن نختبئ، وألا نتحدث، فالجميع مشارك بطرق مختلفة فيما يحدث من دمار.

رفعت النقاب من على وجهي وأخذت رشفة ماء، وأنزلت زجاج النافذة قليلًا، أود لو أضع رأسي وأنام، لكني أخاف أن تفاجئني صفعة من يد أخي على الوجه الذي كُشِفت معالمه. من سيهتم لرؤية صاحبة هذا الوجه الذي فقدَ نضارته؟ وجه رُسِمت عليه انكسارات هذا الوطن فوق سيارة تحمل نعش أحد من أثّروا في مصير حياتها لسنين!

هل كان يجب علينا أن ننفصل لأجد ذاتي التي حاولت طويلًا أن تكون جزءًا منك؟ لكنني قررت الانفصال حين أدركت أنك لم تكن موجودًا حتى أكون جزءًا منك، لأني بدأت في التلاشي معك أيضًا، لكنك الآن أمامي جسد فقط، في الوقت الذي أحاول فيه اختراع وجود آخر لك، فَتاهَ عني معنى الوجود والغياب، فهل كان حضوري محققًا حين كنت معك؟ أم أني من أشكو الآن من الغياب؟

الانفصال بداية مرحلة مختلفة من المعاناة، وجدتني أمام نفسي مسؤولة عن البحث عني في محيط ممتلئ بالنقاط، أكثرها صعوبة هي العلاقة بين الأنثى والذكر. المعنى هنا أيضًا يقف أمامي كالحضور والغياب، معنى الرجل ومعنى الذكر، والأنثى كجنس، والأنثى التي هي أنا، فالأنثى التي هي أنا خليط من كل امرأة عايشتها، وكل ذكر تحكّم في مصير حياتها، الأنثى التي لا تأتي محمّلة بجين يُدعى الخطيئة أو العار أو الشرف، لكنها أيضًا تلك المعاني التي تلصق بنا ليحقق من خلالها الآخر وجوده.

بدأ رذاذ المطر يرسم دوائر على زجاج السيارة الأمامي، وكأنها عيون تتجمع لتنظر إليّ، وما تلبث أن تنساب مكوِّنة خطوطًا كأوردة داكنة، هل تتذكر ذلك المطر الذي رافقنا يوم عُرسنا؟ ها هو اليوم يرافقنا أيضًا.

كنتَ تنتظرني في سيارة بيضاء مزينة بباقات من الورد وشرائط حمراء، وحين خرجتُ من صالون التجميل، كنتَ جالسًا في المقعد الأمامي، ترتدي بدلة رمادية، لم أسألك لماذا لم ترتدِها سوداء، لكنك كنت وسيمًا، فترت من شفتيك ابتسامة بعد أن أبعدت عنهما سيجارتك المشتعلة. هل أمطار اليوم هي نفسها أمطار يوم زفافنا؟ لماذا أسأل دائمًا عن الفرق؟! ربما لأصل إلى نتيجة أن لكل شيء من حولنا نسخة وصورة أخرى، لمطر ذلك اليوم لون مختلف، كان مطرًا شتويًا، ذا إيقاع رومانسي، قطراته تلتقي بأحجار الشارع المرصوف بانسيابية، وينعكس ضوؤها الفضي على واجهات المنازل والنوافذ، لون المطر اتفق مع لون بدلتك، وابتسامتك الغائمة، ولون عينيك. أمّا اليوم فالمطر يبدو مصفرًا، لا ضوء له، يضرب الليلَ بإيقاع جنائزي.

يوم العُرس كان آخر شهر نوفمبر، قرر والدي أن نقيمه في منزلنا رغم ضيق قاعة الضيوف لدينا، استأتُ لهذا القرار، لأن الضغط سيكون فوق كاهل والدتي، وسيحتاج المنزل لتجهيزات كثيرة، وسنتخلى عن دعوة نصف المعازيم بسبب ضيق المكان، ونشب الشجار بين والدي كالعادة.

تعهدت صديقتي منال بإحضار مصممة ديكور للكوشة، فاختارت قماشًا من الشيفون الأبيض بخيوط ذهبية، وُضِع خلف كنبة واسعة من المخمل الأحمر الداكن على شكل ستائر، وباقات من الورود البيضاء والحمراء وُضِعت على عمودين نحاسيين جانبي الكوشة.

كنت يومها أخوض صراعًا مع نفسي لم أفهمه، وكنت أتمنى أن يُلغى هذا اليوم!

– إحساس بالندم سيرافقك بعد الزواج، وما يظهر الآن على وجهك يعبّر عنه.

قالت منال ذلك وهي تشد على يدي، وعقّبت:

– كل شيء حدث، وهو ليس سيئًا، ولكني كنت أتمنى أن تأخذي وقتك في التفكير في قرار الارتباط هذا.

– تعرفين أنني رفضت، ولكني لا أفهم كيف سارت الأمور بعد ذلك، وكأني نوّمت مغناطيسيا، شيء ما كان يجذبني نحوه، انكسر شيء ما في داخلي، ربما سببه ما حدث من مشكلات سبقت موعد العُرس.

– بل كنتِ تحسبين أنه سيأخذك بعيدًا من هنا، ولكنكِ بقيتِ في شرنقة هذه الحارة التي صارت أكثر سماكة، ضعي كل ذلك جانبًا، وحاولي أن تكوني سعيدة بهذا اليوم.

وثيقة الزواج التي يُكتب فيها شروط الحياة، هي قيد اجتماعي مُحكَم، ما الذي ينقصها في أن تحتوي على بنود عقد أي شراكة؟ وأمام هذه الوثيقة تبدلت حال الأسرتين بعد ارتباطنا، ارتفع صوت عمتي حين علِمت أنه قد كَتب في ورقة العقد مبلغًا كبيرًا كمهر.

– كيف تَكتب هذا المبلغ وتنفذ شروطهم؟ المهر عندنا محدد.

– يا أمي هنا الوضع مختلف، وهذا المهر لن أدفعه كاملًا، جزء منه مقدّم، والآخر منه مؤخّر.

كان والدي غاضبًا من أخته، ومِن تَدخُّل خالي وإثارته مشكلة أخرى، وهي أنهم لم يتفقوا أيضًا على مقدار الذهب الذي يجب أن يُدفع، وكنتَ بين طرفي كمّاشة.

وكان خلاف العائلتين خلافَ عادات وتقاليد بين جزئنا الشمالي وجزئنا الآخر الجنوبي، فالمرأة العدنية غالبًا ما تشارك الرجل في تأسيس بيت الزوجية، ولها مهر حدده القانون، لكن في حالتي أنا لم أكن أعمل، ولم تخضع عائلتي لذلك التحديد، فقد رأوا فيه ظلمًا.

ما فهمته أيضًا دون أن يشرح لي أحد أن أسرته تحاول أن تحافظ على نصيبها من أمواله، وقلِقة من أن يصبح منقادًا لي ولأسرتي فينسحب البساط من تحت أرجلهم. كان كل شيء جميلًا قبل أن تقرر العائلتان ارتباطنا، ولا أدري أين تلاشى فرحنا بعد إزالة النقاط بين الشطرين، ونشبت الخلافات بمجرد كتابة هذا العقد العائلي!

كنت أقف متفرجة لا أبدي رأيًا أو أعترض على شيء، أمّا هو فقد كان في صف أسرته في أغلب الأوقات، وكأنه يريد أن يثبت لنا ألا نقاش مع أمّه إذا قررت شيئًا ما، ولكنه بعيدًا عنها كان يرضخ لبعض اتفاقاتنا، ورغم ذلك كله فقد أتممنا العقد، لم أعرف حينها كيف تمت كتابته، فقد كنت نائمة.

كان المطر خفيفًا، خرجتُ من صالون التجميل أنا وصديقة والدتي المقربة ورفيقة عمرها، التحفتُ العباءة السوداء على فستان زفافي الأبيض، وأسدلت الطرحة فوق وجهي، كل شيء غائم كما كانت السماء، أنظر من خلال غطائي لتلك الشوارع، وأرغب في أن أخلع هذا البياض الثقيل، أغتسل تحت السماء، وأمحو ما خطّه لي القدر.

هل سأرى العالم وأنا الآن في طريقي إلى قفص آخر؟ الشارع الوحيد الذي تذكرته هو شارعنا القديم الذي سكنا فيه قبل أن ننتقل إلى حارتنا. حين توقفت السيارة بجانب المكتبة التي كانت أمام بيتنا في هذا الشارع، تسمّرت عيناي حين رأيتها، عالمي السحري الأول، حيث قصص الأطفال والكراريس، والأقلام الملونة، والألعاب، كنت أدخلها بعد أن أخرج من المدرسة، وأخطط أن أجمع مصروفي لأقتني بعض تلك الحكايات، وأشتري الألوان وبعض الطوابع، كنت أشم رائحة الحقائب الجلدية، والدفاتر، كل شيء كان له رائحة، حتى محل الأخشاب الذي كان بجانبها ما زال موجودًا، رائحة نشارة الخشب والغراء عالقة في الهواء إلى الآن. أليست هذه الأشياء الصغيرة هي ما تشكل إحساسنا؟ كما هي رائحتك وملامحك ولمسات أصابعك التي انتهت سريعًا بمجرد الزواج.

كنتَ جالسًا في الكرسي الأمامي من السيارة تدخن سيجارة، وجلستُ بالخلف بجانب الخالة بدرة،

صامتة استمع للقطرات وهي تضرب زجاج السيارة. ولكنك قطعت الصمت وسألت:

– متى تزوجتِ يا خالة بدرة؟

– وعمري إحدى عشرة سنة، وقتها كنا لا زلنا في الحبشة، وكان زوجي شابًا مغتربًا من أمّ هندية، وأب يمَني يعمل في مطاحن البُن، وفي الاستيراد والتصدير.

– وهل كنتِ تعرفين ما هو الزواج وقتها؟

– لا.. والدي هو من قرر زواجي، كنت سعيدة بانتقالي إلى منزل جديد، بحقائب مليئة بالهدايا، والملابس. كان رجلًا طيبًا وكريمًا.

– ضحك زوجي. أما أنا فكنت أعرف أن سعادتها انتهت سريعًا.

كان منزلنا مزدحمًا بالحضور، وقفتُ أمام باب الحوش ريثما يكسرون البيض عند قدمي قبل أن أخطو عتبة البيت، ولم أفهم سبب تلك العادة! هبّت المغنية بطبلها ومعها اثنتان تحملان مزهريات الورد والشذاب للبدء في الزفة، والشذاب هذا نوع من الأوراق العطرية المشهورة شعبيًا، يقال إنها تحمي من الحسد. هنا يجب أن أخطو ببطء يتناسب مع إيقاع الطبل والدُف، وكأن بطء الخطوات استعداد نفسي لدخول مرحلة جديدة من الحياة، ولم لا تكون إعادة تفكير مع كل خطوة أو فرصة لأطلق ساقي للهروب؟ لكنه كان يمسك بذراعي، وكلانا محرجين، فهو لا يرى أمامه سوى عيون من نساء ملثمات، مطأطئات الرؤوس، همس لي أن أسرع بالسير أكثر، لكن إحداهن أمسكت بطرف مرفقي لأستمر في الخطو البطيء.

لقد كان الأمر محرِجًا، ونظرات النساء معلقة في تفاصيلنا وهنّ يتمايلن مع التصفيق، ما الذي تغيّر خلال الأشهر الثلاثة التي سبقت هذا اليوم؟ لم تكن هذه الأحاسيس المتضاربة تنتابني، خوف وأمان، حب وكره. كان سببها تدخلات الأسرة من الجانبين، وحين نشب الخلاف الكبير عند اعتراض بعض أهل والدتي على هذا الزواج، فقد كان خالي يرى أن له الأولوية لأكون زوجة لأحد أبنائه، فبدأ في تقليل ما قدّمه زوجي، كما بدأ في اصطياد عيوبه، وبدأت والدتي تضغط على والدي من أجل أن يفرض شروطًا أخرى عليه، فما كان من أسرة والدي إلا أن بدأت تضغط على زوجي لتأجيل الزفاف حتى يصلوا إلى اتفاق. ظلت بعض الأمور معلقة، وأصرّ زوجي على إقامة العُرس. خلال هذه الفترة من المشكلات كان سور آخر يضاف حولي، كل هذه العوائق التي واجهت قرار الارتباط لم تكن عوائق نابعة من حرص الأسرتين على راحتنا أو ضمان حياة آمنة بيننا، ما كانوا يحرصون عليه هو كيف سيستفيدون من هذه الاتفاقية العائلية! فخالي الغاضب لم يواجهني أو يواجه زوجي، بل كان يُحمِّل والدتي مسؤولية هذا الاتفاق، ويهددها بإمساك حقها من إرث والدها، إن وافقت على هذا الزواج، وحين رأت فيه ذلك الاستغلال عزمت في النهاية على ألا تستجيب

لأوامره، ما جعله يغادر ويقطع صلته بنا، فقد كان يراني عروسًا لابنه منذ نعومة أظافري، وهكذا أطلق عليّ صفة التصقت بي إلى أن قرر الجميع زواجي. صيَغ مختلفة من التعبير، كلها تصب في معنى واحد، اِختُزِل في كلمة امرأة وفتاة وأنثى. لتنتظر أغلب الفتيات الرجل بفارغ الصبر، حتى وإن أكملت الواحدة منهن تعليمها، تظل تنتظر العريس، وإذا حدث أن نسيت فكرة الزواج، فالمجتمع لن يتسامح معها، وسيطلق عليها لقب عانس.

نساء الحارة يتوافدن، دخلت خاتمة تجر فستانها بخُيلاء وقد ملأت وجهها بألوان صارخة من مساحيق التجميل بعد أن تزوجت من بنك نقود في عمر والدها. كنا نسمع صراخها قبل الزواج ورفضها له، تبكي وتولول حظها، ولكنها رضخت أمام المغريات ورغبة أهلها، وكانت صدمتهم كبيرة حين صحوا في اليوم التالي من زفافها وهي في المستشفى بعد أن تعرضت لنزيف حاد، كان الطبيب قد كتب تقريره المشين الذي يضع العائلة بأكملها أمام مسؤولية تزويج فتاة قاصر غير مستعدة للزواج، ما أجبرهم على أن يرضخوا لأخذها فترة من الوقت حتى تستعيد عافيتها، وظلت في بيت أسرتها قرابة السنة، ومن يومها أصبحت تبتعد عن زوجها كلما اقترب منها، وتأخذ منه أكثر مما تعطيه. أمّا والدتها فقد رضخت لتصرفاتها، حين أصبحت تقضي أغلب أيامها عندهم تاركة منزل زوجها، فلم يكن قد جهز منزلًا خاصًا بها، حين جعلها تعيش بين أولاده من زوجته السابقة، وهذا ما جعل حياتها الزوجية معه تنفجر منذ الساعات الأولى، إلى أن اشترطت أسرتها عليه توفير مسكن مستقل لها، لتضمن ابتعادها عن مشكلات أولاده وزوجاتهم، وإلا فإنها لن تعود إليه.

والدتها شوعية تسير خلفها كوصيفة، وهي تعلم مدى تعلّق أنظار النساء بالذهب الذي تضعه ابنتها حول جيدها وفي يديها وأصابعها، وتدرك أن ابنتها لن تستمر في حياتها الزوجية هذه لأنها تكره الرجل.

تخطو خاتمة بدلال نحوي لتطبع على خدي قُبلة هوائية: ألف مبروك يا عروسة، فزتِ به أخيرًا، والله أنّه يستحق، شاب وسيم وصاحب وظيفة مرموقة!

ابتسمت لأردّ عليها بمجاملتي المعتادة لها، والإطراء على جمالها وأناقتها:

– الله يبارك فيك، عقبى لك برجل يعوضك ما مريت به.

– آمين.. يااارب.

وتدنو والدتها مني لتأخذ دورها في السلام.

– الله يسعدكم يا بنتي، أتمنى يعجبكم البيت بعد ما أن أعدنا طلاء الجدران، وغيّرنا الشبابيك، وجددنا بلاط الأرضيات وسباكة الحمّام والمطبخ.

كانت شوعية هي صاحبة البيت الذي استأجرناه ليكون قفصي الزوجي، اشترته بعد أن زوَّجت ابنتها، ورُقّي زوجها رتبة عسكرية بعد الوحدة، ولكنها لم تتخلّ عن عملها في مصنع الغزل، على الرغم من إغلاق بعض الأقسام فيه، وبعد أن كان ينتج جميع الأقمشة القطنية والمخلوطة، أصبح اليوم يعاني من إهمال كبير، وتقلص دوام شوعية لثلاثة أيام في الأسبوع فقط، وهو ما جعلها تتخوف من أن يأتي يوم تنطفئ فيه مدخنته.

لم أشاهد المنزل بعد أن جهزوه، لأنه من العيب أن تدخل العروس بيتها قبل يوم الزفاف، فيكفي أن والدتي هي من كانت تشرف على تأثيثه، وكان أثاثًا بسيطًا، لم أُبدِ رأيي فيه، أو حتى أسأل ما الذي اختاروه.

كانت المغنية تجلس على كرسي وأمامها الميكرفون في طرف الديوان، وتمسك بيدها العود، تغني والعرَق يتصبب من جبينها، رغم برودة الجو في الخارج. عيناها مليئتان بسواد الكحل الذي بدأ يتمدد تحت جفنيها، ولأول مرة أرى فنانة غير فنانات الأعراس اللائي يهزجن بالأغاني الشعبية التي تثير الشجن، فأغلب أغانينا الشعبية في الشمال نوع من النوح لفراق العروس بيت أهلها، وتعاويذ من الحسد والعين لكن بطابع مفرح مبهج: «حجبي يامّه عليا.. واكثري لي في الحجاب.. وعليش ألفين ياسين.. وعليش ألفين حجاب.. وعليش ألفين عزيمة.. في شمالش واليمان.. يحفظك ياخي عليا.. ساع صنعاء لأهلها».

لم أكن أفهم معظم هذه الأغاني، لأنها تُؤدَّى بطريقة ونغمة خاصة، والشعبيات يتوارثن مهنة الغناء عن أهاليهن، ولا تتجاوز فيه الآلات المستخدَمة الطبل والصحن والملعقة، بخلاف الجيل الجديد من الشابات اللائي حافظن على الإيقاع ونوعية الأغاني واستخدمن العود، وإيقاعات الأورج.

أيام كثيرة للعُرس في صنعاء تمتد غالبًا أسبوعًا قبل يوم الزفاف وبعده، وكأنها نقاط يجب أن تمر بها العروس حتى تصل إلى مستقرها، يوم النقش، ويوم الحنّاء، ويوم حمّام البخار، ويوم الزفة، ويوم الصبحية، والشكمة، والسابع، تُرهَق خلالها العروس، وهذا ما حدث لي، وعليها ألا ترى خطيبها أو زوجها إلا يوم الدُخلة.

الزواج معركة اجتماعية، حسبما كان والدي يقول، يجب أن يتجهز لها الطرفان، والنساء في الغالب لا عمل لهن سوى المشاركة في هذه المناسبات، زواج، وولادات متكررة، وهو ما كانت تقوم به أمي معظم أيامها، تخرج كل يوم العصر لحضور مقايل النساء والزيارات المتكررة. مثل طقوس الولادة عند النساء، طقس يستمر لمدة أربعين يومًا، تحضر فيه النساء مجلس (الولاد) كما يُطلَق عليه، وهو الديوان نفسه (صدر المنزل) الذي تجتمع فيه نسوة الحارة يوميًا، حيث تجلس المرأة الوالدة على أريكة أشبه بالسرير، تضع بطانية من الصوف على رجليها، تصل إلى خصرها، وتربط رأسها برباط يلتف حول جبهتها، وتمسك المسبحة بيدها،

وتستقبل النساء من الثالثة عصرًا حتى المغرب.

طقوس تشبه المعصرة، يدور حولها الجمل وهو معصوب العينين لينتج الزيت فقط. التطور الوحيد عبر هذه السنين هو شكل هذه المجالس، لكن المضمون واحد. نساء في التجمعات نفسها لا يُكشَفن على الرجال، ولا يشاركن في الحياة العامة، إلا قليلات منهن، هؤلاء اللائي ارتدن سوق العمل، ولكنهن يبقين في هذه الدائرة نفسها. وأنا الآن أَلِج هذه المعصرة، كنت أتمنى ألا أتحوّل إلى أرنبة، ويبدو أن أمنيتي هذه صادفت انفتاح السماء لأصبح امرأةً عاقرًا.

كان صوت المطر والرعد شديدًا في الخارج، وقِطع من البرد تضرب زجاج النوافذ، صمتت المغنية لتلهج بالتسبيح، تبعتها النسوة وارتفعت همهمات الدعاء، وأنا أدعو أن يعيق هذا المطر رحلة ذهابي إلى القفص الجديد. كان بعض النسوة يتحدثن عن الوحدة، إحداهن تقول وهي تقطف أوراق القات بكل حماس عن إيجابيات الوحدة وكيف أعادت الجنوب للإسلام، بعد أن كان شيوعيًا:

– أيوه... حتى نسوانهن يخرجن كاشفات شعورهن، والمكياج يملأ وجوههن.

تقول أخرى:

– أنا زوجي نزل عدن وشاف بعينه، وقد عينوه من وزارة الأوقاف إمام مسجد، ويحمل على عاتقه هداية الناس، وتعريفهم بالدين، والحلال والحرام.

تردّ الأخرى بحماس أيضًا:

– له الأجر والثواب.. الله يوفقه.

تدنو إحدى صديقاتي من أذني بعد أن سمعت حديثهن، وتهمس وهي تضحك:

– الوحدة جلبت لك زوجًا ولا في الأحلام، هيا احمدي الله.

الاتصالات تتكرر، وتقطع عني حبل الذكريات، وتصِر على أن تفرّق بيني وبينك في الساعات القليلة المتبقية بيننا، لكني أطفأت الهاتف، ووضعته في الحقيبة حتى أستطيع أن أحدّثك.

قطعتْ ذكرياتي أصوات مرتفعة في الخارج، كان أخواي قد بدآ في الاشتباك مع المسلحين، أنزلت زجاج النافذة لأستمع إليهما وهما يقولان:

– لا يوجد لدينا غير عشرة آلاف.

– هذه رسوم الدخول.

– ومنذ متى كنا ندفع رسوم دخول لبقية المحافظات؟ نحن ما زلنا دولة واحدة.

– لا تتفلسف، وإلا عودوا من حيث أتيتم.

أخرج أخواي ما كان معهما من نقود، وزِدت عليها خمسة آلاف حتى يتسنّى لنا الإفلات منهم. وبعد شدّ وجذب تم قبول المبلغ.

صعدا السيارة وهما ينفخان من الغضب، ليقول أخي:

– هذا جزاؤنا، كان من الأفضل لو كنا دفناه في صنعاء.

يردّ الآخر وهو يدير مفتاح السيارة لننطلق في طريقنا:

– هل تعتقد أن هؤلاء يمتلكون قضية حقيقة؟ هم لا يتجاوزون كونهم قاطعي أرزاق الناس، أمّا الجنوب الحقيقي فقد نُهِب واستُبيح منذ قرن، ولم يبقَ سوى مرتزقة، وها هو الشمال أيضا يُستباح ويعود إلى أحضان الإمامة.. جميعنا الآن نبحث عن الوطن.

– حقًا، أصبحنا نبحث عن وطن، الله يرحمه لقد نجا مما نحن مقبلون عليه، هل كان سيحتمل ما يحدث اليوم وما تخبئه لنا الأيام المقبلة؟ أصبحت عدن تلفظ الشماليين، لا ذنب لنا سوى أننا دم واحد، لا شيء سوى أن بطاقاتنا إصدار شمالي، من أب جنوبي، وهم شماليون بأوراق جنوبية.

واصلنا سيرنا بعد أن نجونا من نقطة الضالع الملتهبة. الطريق مظلم، لا شيء سوى أضواء السيارات، والجنوب يطل بملحه، وهواء بحره القادم من البعيد، هواء استنشقته أول مرة حين زرنا عدن بعد الوحدة بشهور قليلة، رُفِعت الحواجز بين الشطرين، بدءًا من خطوات التمهيد لتنفيذ الاتفاق السياسي. كانت رحلتنا الأولى لاكتشاف الجزء الآخر من جسد الوطن، للتعرف على أهل والدي، الجزء المفصول من سنوات، لكنه الجزء المتحرر والمفتوح على الأفواج البشرية القادمة من البحر، لماذا شعرت وقتها بالتئام لذيذ

في قلبي؟ كنت أتأمل ملامح والدي وهي تعانق أرضه أخيرًا، ملامح غائمة لم أفهم منها شيئًا، تذكرت وقتها صور أقاربنا التي كانت تصل إلينا مع الرسائل، صور عمتي وأبنائها، عائلة والدتي وأقاربها.

كيف اختلفتْ اليوم هذه الطريق، وهي ذاتها قبل ربع قرن؟ تخيفني لفظة «قرن»، تحيلني إلى تاريخ انتهى، وأحباء رحلوا، وعمر انقضى. مشاعر فكّكها الزمن وأعاد تركيبها بجفاء، وفي حالي هذه حلّت مشاعر مختلفة. لم يعد للطريق دهشتها، لأن معالمها لم تتغير بل ازدادت بؤسًا، والأقارب ليسوا كما كنا نرسمهم في خيالاتنا، ينتج الزمن تفاعلات كيميائية تتغير تجاه كل شيء، وأكثرها قسوة علاقتك بالمحيطين بك وأقرب الناس إليك، أجد أحلامنا وقد تناثرت أشلاؤها طوال هذه المسافة.

مررنا بنقطة الحبيلين، تزدحم العديد من السيارات المتراصة للتفتيش، نزل أخواي لشراء القات، ومِن خلف زجاج السيارة أتابع أناسًا وحياة، وواقعًا ازداد قتامة. فاصل زجاجي بين ملامح الخيبة والانكسار التي أخبّئها تحت غطاء وجهي، كيف لهؤلاء أن يعرفوا مدى خيبتي؟!

أطل وجه أخي المتحفز كعادته من زجاج السيارة الذي كنت أنظر منه لحركة السوق، معبرًا عن احتجاجه حين رفعتُ لثام وجهي لأستنشق الهواء، كما كان غاضبًا في ذلك اليوم حين رآني لأول مرة وقد علا وجهي قليلٌ من المساحيق التي وضعتها بنت عمتي احتفالًا بقدومي. غضبه أيضًا لم يتغير، بل أصبح أكثر جرأة حين يتعلق الأمر بكشف وجهي، فهو لا يدرك معنى أن تحيا بدون وجه، أو بتعبيرات مخفية عن الجميع، فلدى المرأة صيغة متعارفة لدى الجميع في التعامل مع الحياة والعلاقات، وهي الحدة في أغلب الأوقات.

كأنثى يجب أن أكون حادة في كل شيء عندما يتعلق الأمر بالجانب الخارجي منّا، لم يحدث أن كان أخي برفقتي دون أن يعلق على طريقة مشيي التي يجب أن تكون عسكرية، أو حتى شكل عباءتي السوداء وغطاء وجهي، لم يصادف أن تحدثنا في أمور مشتركة، أو أن يكون بيننا نوع من الحوار، هناك حواجز دائمًا ونقاط تنشأ بيننا، لا مجال معها للصراحة والشفافية، لا اهتمام بما تشعر به أمام الصيغة الجاهزة التي نشأت عليها.

عدت إلى وجه أخي المتوتر دائمًا، وأسدلت لثام وجهي تجنُبًا لأي مشادة قد تحدث بيننا كالعادة، لأني في وضع لا يحتمل أن أجادله فيه.

رائحة الهواء الممزوجة باليود، ودرجة الحرارة المرتفعة، جعلت شراييني تتسع فرحة للقاء البحر والمدينة والأقارب. قرر والدي أن نقوم بالزيارة الأولى هذا الصيف، بعد زيارتك لنا قبل شهور، وبعد إعلان الوحدة، وها هي عدن في شهر حزيران من عام 1990، تبدو أمامنا حقيقة بعد أن كان والدي يحكي لنا بشكل مقتضب عنها، لم أسمعه يومًا يتلفظ باسم «الجنوب» بل كان يقول «عدن»، فكانت لنا الأرض المجهولة التي لا تخلو من السحر، اتضح لي جانب واحد فقط من معالمها قبل سنين، حين وفدت علينا فريدة إحدى قريبات والدي، وكانت على وشك الزواج بأخيك الكبير، لولا ما حدث من خلافات عاصفة بينها وبين أسرتك، واشتعال نيران الصراع السياسي في الثالث عشر من يناير سنة 1986.

الدماء التي أُريقت، أراقت معها دماء الحب التي كانت تجري في عروقهما، والصراع الذي كان بين رفقاء النضال في الحزب الاشتراكي أجج الخلاف بينهما، واشتعلت الحرب، وقَتل الرفاق بعضَهم بعضًا، ودارت الملاحقات في الشوراع حسب الانتماء المناطقي والولاءات العسكرية، فهرب بعض قيادات الحزب إلى صنعاء، واغتيل البعض الآخر.

كانت فريدة تحكي وهي لا تجد تفسيرًا لكل ما حدث:

– كنت مصدومة من هول ما رأينا، فقبل أن أصل إلى مقر اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي، حيث كان عليّ أن أُعِدَّ تحقيقًا صحفيًا عن الاجتماع، جاءنا خبر ما حدث في المقر قبل أن يبدأوا، وكنت قبلها بأيام على خلاف مع نائل بسبب إصراري على العمل الإعلامي الخاص باللجنة المركزية، لم يكن معارضًا بهذه القوة إلا حين بدأت رائحة القتال تطوف في الأجواء.

توقفنا حينها على بعد شارعين من المقر، ولم نعرف أين سنتجه، والملاحقات بدأت تطول حتى الكوادر من العاملين في الصحافة، وغيرهم في المؤسسات الأخرى، وتم فرز الرجال أولًا، وأُخِذوا إلى قمة جبل (هيل)، وهناك قتلوهم ومُثِل بهم دون رحمة.

قال والدي:

– هل حقًا كان بينهم الدكتور مطلق عبد الله، وعبد الحميد أحمد سعيد، وزملاؤهما؟ هؤلاء كنت أعرفهم قبل خروجي من عدن، وكنت أحضر اجتماعاتهم!

– لسنا متأكدين من تصفيتهم، لكن اختفى الكثيرون منهم، حينها حضر بعض الزملاء وقد سلحهم بعضُ رجال القبائل الذين دخلوا عدن، وأخذوا البنات وأنا معهم، وهربوا بنا إلى قمم الجبال الفاصلة بين التواهي ومنطقة القلوعة، ولم نَعُد إلى منازلنا لأنهم بدأوا في اقتحامها للبحث عن خصومهم، ولم نفهم من

هؤلاء،

ولا من يقتل مَن!

قال والدي لفريدة بعد أن سردت ما حدث:

– لقد جرّكم الحماس للتغيير، فأنتم الجيل الذي جاء على أشلاء من اغتيلوا من الرفاق بعد الاستقلال، ودفعتم ثمن تلك الدماء. من المؤكد أنكم تعرفون أن استبعاد قيادات جبهة التحرير وتصفيتهم، لتتفرد الجبهة القومية للحزب الاشتراكي بالسلطة، كان لا يمكن أن ينتهي على خير، فالجميع أصبح ضاغطًا على الزناد.

– استفراد اليسار الاشتراكي الذي فرض الشيوعية اللينينية كان مواجهة لليمين الرجعي الذي كان يعارض التحديثات.

– يا فريدة حماسكم كان لا يرى الواقع بصورة واضحة، فتيار اليمين كان يرى بعين الواقع، واليمن تحتاج لوقت كافٍ حتى تتقبل مثل هذه التجربة.

كنت أستمع وأنا أجول في وجهها، وفي عينيها الزرقاوين، وبشرتها المرهقة من السفر، وشعرها الكستنائي الناعم، وأحاول أن أقتنع أنها مرّت بهذه الأحداث الدامية التي لا تناسب شكلها الأنثوي، حتى إنها دخلت صنعاء دون أن تغيّر في طريقة ارتدائها لملابسها التي لا تتناسب مع بيئة المناطق الشمالية. أدخل والدي حقائبها، وكنت أرقبها بشغف من يريد أن يكتشف عالمًا جديدًا، أو يرى نوعًا من النساء يفجّر المفاجآت وسط من أصابوني بالملل.

كان الجو باردًا، أخذت والدتي معطفًا من الصوف لتعطيها إياه، واقترحتُ عليها أن ننزل معًا لشراء بعض الملابس الشتوية.

كان والدي يستحثنا لتجهيز العشاء، ولم أتحرك من أمامهم لأستمع لحديثهم وهي تسرد ما كان في عدن من أحداث.

– انتشر المسلحون في مناطق عدن، واختلط الحابل بالنابل، وقصفت التواهي وخور مكسر، فلم أجد سبيلًا للبقاء وهم يتعقبون المعارضين والصحفيين وكل من يشتبه به، قُتل العديد من الرفاق، كانوا يجمعون البعض في حاويات ويقومون بدفنهم أحياء، تعطلت الخدمات وانقطعت مياه الشرب من المنازل، وأصبح المواطنون يخافون الخروج من منازلهم حتى لا تصطادهم الأجهزة، كل شيء اشتعل، وتحول إلى رماد.

داعبتها والدتي:

– بمجرد انفصالكما اشتعلت الحرب، يبدو أنكما السبب.. هههههه.

ضحكتْ وقالت:

– يبدو أن فيروس الخلاف انتشر وأصابنا جميعًا.. هههه، صحيح أننا انفصلنا، لكن ظلت علاقتنا قوية، وعملنا معًا دون أن يؤثر ما حدث بيننا سوى في علاقتي بأسرته. كانت مشكلته معي هي في عدم تقبله أن أنخرِط في العمل الحزبي، وأن ينعكس ذلك في سلوك حياتنا، بقي الإرث أقوى من التغيير، كان قلِقا أن تُحسب رفيقة طفولته لطرف من الأطراف المتناحرة.

ردّ والدي:

– مرحلة صعبة لم يتقبلها الجميع، حتى من كانوا في جبهات المقاومة ضد الاستعمار، بعد الاستقلال رأيت بنفسي تسلل الخلافات بينهم، وتعرفين أن السبب هو عدم تقبل البعض السلطة الشيوعية والتأميم، وتحرير النساء.

كانت صورة نائل التي تطوف في رأسي هي تلك الصورة الموضوعة في ألبوم من ألبوماتنا العائلية، وكانت قديمة نوعًا ما، يظهر فيها واقفًا ببنطلون شارلستون، وقميص ضيق مفتوح الصدر يظهر منه شَعره الأسود الكثيف، ونظارة شمسية كبيرة، وشعره طويل، كانت هيئته تدل على (موضة) سادت ذاك الوقت، يطلَق عليها الخنافس أو الهيبيز، لا أعتقد أنهم كانوا يدركون الخلفية الثقافية لظهورها، وانتهت دون أن تُغيّر فكرهم القديم.

وكان الحب ما أرادت أن تنساه فريدة، ساءت حال نائل وهو يواجه انهيار القيم التي آمن بها لتأسيس عهد جديد، وبقيت أمامه قيم الأُسرة والمجتمع التي واجهت كل ذلك التصدع.

عقّب والدي:

– كان نائل اشتراكيا طامحا لعهد المساواة بين طبقات المجتمع، وكنت أتابع ما تكتبين عن قضايا النساء وحقوقهن في العمل السياسي والتعليم والتحرر، ولكني كنت على يقين أن كل ذلك التغيير ظل مقيدًا بالماضي، فمن الوهم ادعاء تأسيس حياة جديدة لا تتصل به.

حاولتْ والدتي التأثير عليها لتعود إليه بعد أن تنقشع آثار هذه الأحداث، وكان اقتراحها أن قالت:

– لماذا لا تقرران الرجوع والعيش هنا، ولتبعدا عن الأُسرة والسياسة؟

أخرجتْ من حقيبتها علبة سجائر وبدأت في التدخين: وقالت:

– هناك شيء انكسر بيننا، ونحتاج إلى وقت لنستوعب ما حدث، وقد نعالجه يومًا ما، لكنه من الصعب

عليه أن يترك عدن، أو يعود لأحلام العهد الجديد.

كان منظرها غريبًا بالنسبة لي، وهي تتحدث وتنفث دخان سيجارتها. استأذن والدي لصلاة العشاء، أمّا هي فلم تكن تصلي، أو تعرف قراءة القرآن.

وبعد فترة أخذ والدي على عاتقه مهمة تعليمها الوضوء والصلاة، والدي الذي كان ملتزمًا بأداء جميع فروضه في المسجد، إلى جانب النوافل التي لم يتركها يومًا.

– ما عليكِ الآن إلا أن تغيّري من مظهرك أثناء الخروج، إنْ أردتِ أن تقدمي على عمل هنا، فقدْ رأيتِ بنفسك ما يجب أن ترتديه النساء هنا.

غامت عيناها في الفراغ، أما أنا فأردتُ أن أصرخ معترِضة لإمكانية تحوّلها إلى سواد.

– سأرتدي الطرحة والعباءة، ولن أغطي وجهي.

– لا بأس، سنقدم أوراقك إلى إحدى المؤسسات الإعلامية غدًا.

بعد فترة من السعي وجدنا عملًا لفريدة في إحدى الصحف الرسمية كمتعاقدة، وقد رحب بها رئيسها كونها من الكوادر المهمة التي قضت مرحلة مهمة في عملها الصحفي في عدن، وبعد أن بدأت في الاستقرار، وجدنا لها منزلًا قريبًا منّا، وبدأنا في تأثيثه، وأول ما قمنا به هو فرْش الأرضيات بالموكيت البُني اللون، اشترت سريرًا ودولابًا للملابس، وبعض أدوات المطبخ، وأهم الاحتياجات المنزلية، كانت تبدو سعيدة أنها قد استحقت العمل، وكنت أكثر منها سعادة وأنا أرى امرأة تستقل بنفسها.

تَبرع والدي لها بمكتب صغير وكرسي، فعملها الصحفي يحتاج إلى ذلك، كانت تقبع خلفه كل مساء وهي تكتب المقالات والتحقيقات الصحفية.

كنت أحدث نفسي، ماذا لو أنتقل للعيش معها، ونصنع عالمًا مختلفًا، بعيدًا عن ضجيج أسرتي الكبيرة، ولو لبعض الوقت؟

وبدأ الربيع يطل برذاذ مطر خفيف، فتحتْ النافذة وأخرجت كفيها لتستقبل قطراته بفرحة وهي تقول:

– نادرًا ما ينزل المطر في عدن. وصادف مرور شوعية من أمام المنزل وهي عائدة من عملها في المصنع، وحين رأتنا واقفتين أمام النافذة، لطمت على وجهها وهي تقول:

– غطي شعرك يافريدة قبل أن يلتم عليك رجال الحارة.

شعرت فريدة بالإحراج ودخلت لتضع الطرحة فوق رأسها، بينما شوعية لاتزال واقفة تنظر إلينا مستمرة في همهمة خافتة:

- الله يعينك يافريدة على هذه العيشة.

- ماذا تقصدين؟ قالت فريدة بعد أن وضعت طرحة غطت نصف شعرها فقط.

- أقصد أن الحياة هنا صعبة لواحدة مثلك تعودت على الحرية.

- لا تقلقي.. سأتعود.

- انتبهي، فحريم الحارة يخفن على أزواجهن.

ضحكت فريدة بصوت عال.

وتركتنا شوعية وهي تقول: من الضروري أن نزوجك يا قمر.

هاهي عدن مدينة نابضة كما كان وجه فريدة، واليوم بعد أربع سنوات منذ قدومها إلى صنعاء، تتحقق وحدة الشطرين، وكأن تلك الدماء التي أريقت كانت سببًا في أن تسعى عدن وصنعاء لرفع علم وطن واحد، وعند بداية الطريق البحري، حينما أطلّ البحر من الجانبين، اجتاحتني رغبة أن أرتمي بين زرقته، وكأن بيننا عهدًا قديمًا للقاء. ومالت أمي برأسها على النافذة، وحرّك الهواء خصلات من شعر رأسها المتحرر من طرحتها، وبنبرة صوت لا تخلو عادة من التهكم قالت لوالدي:

– ماذا لو لم تبع منزلك في منطقة الشعب في البريقة؟ لكان لدينا الآن مأوى مستقل بنا. تسرعتَ ولم تفكر، هل كنت تظن أنك لن تعود بعد هروبك يومها من عدن؟

نظر أبي من خلال نظارته إلى عينيها وهو يقول:

– لم يكونوا ليتركوه، فقد جرت حركة التأميمات ليسمحوا لكِ بمنزل واحد فقط إنْ امتلكتِ أكثر من منزل، وكان عليّ أن أبيعه وأرحل سريعًا، كان الوضع مقلقًا حين نشب الخلاف من جديد بين الرفاق، وانقلب جناح الجبهة القومية على جبهة التحرير، وشُنت الاعتقالات، ووضِع البعض تحت مجهر التصنيفات السياسية، وبدأ التضييق على المعارضين.

تركتهما يتناقشان وغصت بين رذاذ البحر المحلق من جانبي الطريق المؤدي إلى كريتر (قلب العاصمة عدن) في حين أكمل والدي بقوله:

– هل تعرفين أن منطقة الشعب كانت بعيدة جدًا عن وسط المدينة؟ كريتر هي قلب عدن، المركز العريق بناسه ومبانيه، ومحلاته، وشوارعه وأسواقه، عدن كانت عاصمة الممالك، لهذا لم أحب الاستقرار بعيدًا، لكني اشتريت هذا المنزل في الشعب حين كانت تُعرض المنازل بأسعار رخيصة، في خطة لاستحداث مناطق سكنية جديدة.

كنت أستمع إليه وأفكر في معنى «القلب» أو «المركز»، فلا نزال ندور حوله، ولا علاقة لمفهوم الزمن المتعارف عليه بأن الماضي زمن قد انتهى، بل ما يبدو أننا نحيا زمنًا واحدًا هو الماضي والحاضر والمستقبل معًا، ونتكرر بطريقة ما في الزمن والمكان نفسه، لا شيء ينتهي في وجودنا هذا. عدن قلب «مملكة أوسان»، قلب ينبض لمئات السنين، فالزمن كائن لا يتغير كما هو المكان، ولكنّا من نذهب ونعود بشكل آخر، ربما كنا في تلك المملكة، وانتهى بنا الأمر أننا عبرنا بوابة الزمن حتى صرنا هنا الآن.

تأخذني هذه الأفكار، كما تأخذني تلك اللحظة التي تبقى مقاوِمة للنسيان، اللحظة الخالدة.. وهذا سِر تعلّقي بخلود المكان، وعلى الرغم من أني أعبر اليوم للمرة الأولى هذه المسافة من صنعاء إلى عدن، فإن

إحساسًا غريبًا يجتاحني بأنها ليست المرة الأولى، ربما كان لي عبور سابق لا أتذكره، وإلا ما سبب هذا الحنين وهذا الارتباط بمدينة أزورها لأول مرة؟ بل ظلت وجهة الحنين الدائم!

كان أبي لا يزال يسرد تاريخ المدينة العريقة، وسنوات دراسته في مدرسة البادري أو سانت جوزيف التي كانت تهتم بالتعليم الإنجليزي.

وكنت أفكر فيك! متى سأصل وألقاك، وكيف ستعاملني بعد أن رفضتك؟ لكني اشتقت إليك، بعيدًا عن عدم قبولي لعرضك الذي جاء كومضة برق، ليتركني عاجزة عن التفكير إلى هذه اللحظة، فأنت لم تكن رجلًا واضح المشاعر، وغموضك يخيفني بقدر ما كان يثيريني ويربكني لدرجة البكاء.

سألتني أمي، ولأول مرة حين رأت أنك غادرت دون أن تكرر عرضك لي، هل كنتِ تريدينه أم لا؟

أجبتها بغضب: لا.

عقّبت أمي بهمس: لكنكِ تحبينه.

انفجرتُ باكية وصرخت بصوت عالٍ لاااااا.

وصلنا إلى منزلكم في عدن، شعرت بالراحة المؤقتة لغيابك، رغبتي في رؤيتك تضارع راحتي لعدم وجودك، لكني كنت أشعر بوجودك وأنتظر خبرًا عنك. كان لرائحة البخور إحساس مختلف، وكأنه الامتداد الأصلي الذي كان يعبق في بيتنا في صنعاء، الهواء رطب ممزوج بهواء المراوح وحرارة الجو، شعرت بانتشاء وتحفّز غريب في حواسي وشوق لمعرفة هذه المدينة، كما هي لهفتي لأسمع أي شيء عنك، وإن كان اسمك فقط. هذه المشاعر البدائية كانت ألذّ ما أحسست به، لأنني افتقدتها حين مرّ بنا الزمن، وحرصت على أن أحتفظ بها وأكتب عنها، لا لشيء سوى لمعرفة سرها، ولماذا تظل هي الأكثر جمالًا.

كان لقلبي نبض كأغنية سمعناها حين توقفنا في شارع الزعفران، أغنية ممزوجة بلحن هندي، (إلى ما إلى ما زماني) بصوت محمد جمعة خان، هذه المدينة الممتزجة تفاصيلها بالبشر، وبالروائح والألوان، تجعلني أرتبك، كما أرتبك تمامًا أمامك. مدينة لم أعش فيها، لكنها كما لو أنها نسخة منقولة من تكويني، لو كان لدينا يومها الهواتف المتنقلة، كنت سأصور وأوثق وأتحدث بكل ما شعرت به.

وكما انطلقت تنهيدة طويلة من صدر والدي حين وصلنا مدخل العقبة المؤدي إلى شارع أروى، كان وجهه جامدًا، لا يعبّر عن شيء، ولم نسمع منه سوى تلك التنهيدة، لم أكن أفهم معنى صمته في هذه اللحظات التي يعود فيها إلى مسقط رأسه بعد فراقها سنوات طويلة، لكنه أخذ يدندن بصوت غائر مع الأغاني التي كانت تنطلق من راديو السيارة، إذاعة عدن، الساعة الخامسة مساءً، مع «ما يطلبه المستمعون».. أمل بلجون ترحب بكم، كانت أغنية أحمد قاسم (مشتاق لك أشتي أشوفك).

– أشتاق لعدن كثيرًا، لكن لصنعاء نكهة أخرى.

قالت فريدة ذلك بعد مُضي شهرين على قدومها، ونحن نجوب أسواق صنعاء القديمة، لتشتري بعض المستلزمات لبيتها الذي استأجرناه لها في حارتنا. كان منزلًا لامرأة عجوز تُدعَى «سنبلة» وكانت مُقعَدة. كان المنزل عبارة عن ملحق خلفي جميل لمنزل العجوز، مكوّن من غرفتين، وصالة، وحمّام ومطبخ، كان يؤذيني في تلك المرأة المُقعَدة شكل جلدها الملتصق بعظمها، وحدتها، زوجها توفي منذ عشرين سنة بعد أن ترك لها هذا المنزل، فاقتسمت جزءًا منه للإيجار لتعتاش منه، كان زوجها مغتربًا في إحدى دول النفط، وبعد زواجهما تركها في قريته ليأتيها في كل عام مرة، ليقضي معها شهر رمضان وأيام العيد، ولم تنجب منه، لكنه تزوج في الغربة وأنجب، ولم تفكر في أن تتركه، لكنها عقدت وجودها بوجوده كزوج لها، واكتفت باعتنائه بها من بعيد، اعتادت أن تقوم بشؤونها الخاصة بنفسها، وعلى رغم ذلك الجلد الملتصق بالعظم، فقد كانت تمتلك خِفة عجيبة في الحركة وهي على كرسيها المتحرك، وما يطمئنها أن حفيدة زوجها تطل عليها يوميًا لتتفقدها، ولتقضي احتياجاتها الضرورية، وكأن القدر ادّخر لها هذه الحفيدة التي لم تأتِ من رحِمها، وما أدهشنا أنها تمتلك عيني هذه العجوز التي تُدعَى «سنبلة» وارتبطت فريدة منذ اللحظات الأولى بهذه المرأة، وأصبحت جليستها.

كنا نعرف سنبلة منذ زمن انتقالنا لحارتنا، كما هي لم تتقدم في الزمن، وكأنه توقف بمجرد أن اكتفت بحياتها على كرسي متحرك.

دخلنا من باب اليمن، وكأننا دخلنا بوابة زمن آخر، دهشتي عادلت دهشتها وكأني أراها لأول مرة وبعينين مختلفتين، فقد يجعلنا الآخر نرى ما كنا لا نستطيع أن نراه، أو أنه الحماس حين كانت تقف أمام شيء ما، تكتشف فجأة أنك تمتلكه دون أن تنتبه له قبل ذلك، وهذا ما شعرت به وأنا ألتهم مباني صنعاء القديمة بعيني، وأحاول أن أعكس لفريدة مدى معرفتي بهذه المدينة حين كنت أزورها مع جدتي، لكنها تحدثت عنها وكأنها قد زارتها من قبل:

– سبعة أبواب ومحاطة بأسوار، وكانت هذه الأبواب تغلق قديمًا بعد الغروب، لكن أين هي بقية الأبواب؟

كنا نسير وأعين المارة ترشقها بشغف أيضًا، كان البعض يقف ليتابع سيرنا حتى نختفي من أمامه، وكنت أسمع بعض كلام الغزل السريع يواكب خطواتنا، باللهجة الصنعانية (الحالي بكّر)، أحدهم اصطدم بها وهو يقول (وجه القمر مكشوف).

المنتجات الشعبية في السوق، كالزبيب (العنب المجفف) بأنواعه، والتمور، والمكسّرات، والأدوات النحاسية، ودكاكين الفضة والحُلي، سوق تفضي بنا إلى أخرى، تاريخ مستمر، فماذا يعني أن يبقى مكان ما كل هذه القرون ويتعاقب عليه الناس؟ كان منظر الحبوب المتنوعة الموضوعة في أكياس ضخمة أمام المحلات يوحي لي بأنها ليست إلا أولئك البشر الذين تعاقبوا في هذه المدينة القديمة.

أصوات مرتفعة ومتداخلة، وعمّال يطرقون بمطارقهم على أدوات المعدن لتشكيلها، نساء بالستائر الصنعانية الملونة، اشترت فريدة ستارة صنعانية، فقد أبهرتها ألوانها وطريقة لبسها، فكانت تقلّبها بين يديها لا تدري كيف ستضعها على جسدها.. منظرنا أوقف امرأة مرّت بجانبنا، ودون أية مقدمات شدّت من يدها الستارة، وبلهجة صنعانية غنجاء أخذت تشرح لنا طريقة لبسِها، وهي تقول لها:

– حيا ببنات عدن.

هذه صنعاء القديمة التي ظلت لقرون تحارب المستعمرين، تفتح أبوابها للقادمين بشروطها، وتحتال على من يحاول طمسها، وتظل مبانيها التاريخية حصونًا تنأى عن الصراع.

حين وصلنا التحرير قالت لي: ها نحن قد دخلنا صنعاء الجديدة، أو كما أطلق عليها أحد الكتّاب الصحفيين «صنعاء العدنية». أحببت كثيرًا هذه التسمية!

حينها وأنا أتمشى معها في صنعاء الجديدة، عرضت عليها أن أريها حارتنا القديمة القريبة من قاع اليهود، لأعرّفها على (مكتبة أبو صلاح) حيث بدايات أحلامي وخيالاتي، وليتني لم أَلِج هذا العالم الذي صوّر لي عالمًا مختلفًا عن الواقع، والذي كان يجب أن أفهمه وأعيشه.

أخذتني بعد جولتنا هذه لمقر عملها بعد أن عُيّنت في إحدى الصحف، لم تعجبني حينها نظرات مديرها لها، وكانت تحاول أن تتغاضى عنها وتصرف نظره إلى ما قامت به من عمل.

مرت بضع شهور على استلامها عملها كمحررة، لنتفاجأ أن ذلك المدير يريدها للزواج، لكنه اشترط عليها أن تغطي وجهها. كان والدي قبل ذلك بفترة يعلّمها الوضوء وأداء الصلوات، ويحثّها على حفظ قصار السور، إلى طريقة جلوس التشهد وكيف تثني إصبع إبهام قدمها، وكانت لاتستطيع فعل ذلك وتسأله:

– ايش الحكمة من ثني إبهام قدمي؟! يرد عليها والدي:

– سُنة مستحبة.

وبعد فترة كانت صورة أخرى لفريدة قد بدأت تتشكل، وتصبح جزءًا من محيط تمنيت منها هي أن تغيّره،

لا أن يبتلعها.

كانت أحلامي تصطدم تباعًا على حوائطَ كثيرة، وتتناثر كقِطع ثلج وتتلاشى، كل من أتى من الجنوب بجناحيه العريضين لأحلم بارتقائهما وأحلّق بعيدًا عن هنا، ما تلبث أن تتكسر. وها هي الجميلة كتمثال إحدى الآلهة، تُطمس معالمها. وتخلّت تدريجيًا عن زينتها وتعابيرها المرحة وعينيها المحلقتين. وتوقفت الموسيقى التي كنت أسمعها كلما دخلت منزلها، ولم تعد صورتها الكبيرة المحاطة ببرواز ذهبي تزين الصالة، والتي كان شعرها فيها منسابًا على كتفيها، وعيناها تنظران للأفق، بينما تتدلى من عنقها الممشوق قِلادة زرقاء، ووضعت بدلًا منها لوحة حُجّاج يطوفون بالكعبة وبجانبها صورة للبراق النبوي!

«كل شيء سهل، إذا بقيتَ تابعًا».

قالت هذه العبارة وهي ترتّب ملابسها وتضعها في الحقيبة، لم أفهم ما تقصده تمامًا، لكن مظهر ملابسها يوحي بالحزن وهي تحشرها في الحقائب. ملابس جميلة متنوعة ذات ألوان زاهية، جيبات وقمصان وبناطيل كانت تخرج بها ولا تعير اهتمامًا للمجتمع، كانت كزهرة وسط حقل من الفحم، شعرتُ بالاختناق وكأني إحدى هذه الفساتين التي سيُكتَب عليها الدفن.

– لماذا توافقين على الزواج وتقبلين أن ترتدي هذا السواد؟

طافت في الغرفة، ووقفت أمام ستائر النافذة العريضة المطلة على الشارع، كان الهواء يداعب ستائر الشيفون، وكأنه يرسل لمساته الحانية ليخفف التوتر الذي تشعر به.

أجابتني:

– أنتِ ما زلت صغيرة لا تفهمين معنى أن تعمل امرأة مطلّقة هنا، وخصوصًا إذا كانت امرأة عدنية، أغلب من يعمل معي يعتقد أني مباحة، أعرف أني ارتديت العباءة السوداء لإسكات الجميع، لكني أشعر بأني أصبحت متبلدة، والحروف تهرب مني حين أكتب مقالًا أو تحقيقًا، حتى الأخبار التي نحررها مصطنَعة ومطبوخة، وأصبح الكثير من الزيف يخترقني ويحيط بي.

كنت أفهم ما تقوله، وألمس مدى انكسارها، في الوقت الذي كانت فيه نساء حارتنا قلِقات من وجهها المكشوف على أزواجهن، كنت أرى فيها حياة نابضة، مختلفة، تفاصيلَ امرأة خارج الجدران المعتادة التي ما لبثت تحوِّطها الآن من كل اتجاه.

– لماذا لا تعودين إلى عدن؟

كان سؤالي المضمر الذي اعتقدتُ أنه طوق نجاة من مصير محتوم، ومن قيود لا فرار منها تنتصب أمامها واحدُة تلو الأخرى. إجابة هذا السؤال جاء بعد حرب صيف 94، وقتها تحدثت أم منال عمّا أوصل عدن لترتمي بكل ثِقلها في أحضان صنعاء.

كانت شوعية تجلس متكئة تمضغ أوراق القات، وبجانبها والدتي وبعض جاراتنا ممن أيّدن دخول قوات الشمال عدن، وحسب رأيهن أنه انتصار للوحدة وللشعب على الانفصال والردة، لكن أم منال قالت لهن:

– برأيكن، هل تعتقدن أن ما حدث انتصار للشعب؟ فـ (عدن) قد دقَّت آخر مسمار لها في نعش تاريخها السياسي بعد حرب 86، وخَطَت آخر خطواتها نحو صنعاء، وما كان يدركه من هرب منها أنها لن تعود عدن

الاشتراكية، ومَن سيعود لن تستقبله بمشاعل التنوير، لأن الحقيقة أن الناس عادوا إلى جيناتهم، وإنْ كان التغيير والتنوير قد غيّر في عقلية الكثيرين وقتها، لكنه مثل الموضة، تسود فترة من الزمن وتنتهي، بينما يظل العمق ممتلئًا بمخزونه الاجتماعي والثقافي التقليدي.

قالت شوعية وهي تشير باتجاه فريدة:

– وهذي فريدة عندنا، من يوم ما هربت من عدن لم تَعُد إليها إلا زيارات سريعة، وهي من درست في مدارس الإنجليز، واشتغلت مع الشيوعيين. وفي الآخر تزوجت من صنعاء.

تَعكّر وجه فريدة وقالت:

– انتكاستنا لا تقل عن انتكاستكم يا شوعية، انتكاسة اليمن الجمهوري، وعهد التغيير، شوفي بنفسك ماذا يحدث عندكم في المصنع. أعتقد أنتِ أدرى بما يحدث له اليوم، وليس المصنع فقط، بل كل ما كان له صلة بالثورة من اقتصاد هو اليوم عُرضة للتصفية.

قالت أم منال بنكهة المُزاح:

– اختيار فريدة هذا الزواج كان تمهيدًا للوحدة بين صنعاء وعدن.

ردّت فريدة بسرعة:

– وأنا اليوم أعلن انفصالي عنه، وسأعود إلى عدن قريبًا، والشيء الذي لا تعرفونه، أنني لم أكن أتوقع صعوبة التعايش بيننا، فهناك أشياء أساسية لم نتفق عليها، وخلال هذه السنوات وبعد أن أنجبت له توءمًا، أصبحنا أكثر اختلافًا.

قالت شوعية بعد أن صدمها خبر فريدة:

– صلّي على النبي يا فريدة، أنتِ منّا، وما كان قصدي استفزازك، ولا تفكرين أن تُشّرِّدي أولادك لمجرد أنك وزوجك مختلفان.

قالت فريدة لشوعية:

– تعرفين جيدًا، حين جئتُ إلى صنعاء كان ذلك للعمل فقط، ومن أجل تجربة حياة جديدة، استأجرت سكنًا خاصًا بي، الجميع وقف ضدي لأني سأعيش لوحدي، وأعين الحارة كجمر تقذف نحوي، إلى أن جاء أخي ووالدتي برفضهما عيشي هنا بمفردي، فلم يكن أمامي سوى القبول بالزواج.

قضت والدتها وأخوها عندنا نحو شهر من أجل أن يحضرا يوم زواجها، حضر العريس ومعه والدته وأخته، وكانت صدمتنا حين عرفنا أنه كان متزوجًا، فهاجت والدتها وهي تقول:

– كيف ترضين بهذا الأمر يا ابنتي؟ أنتِ لستِ مجبورة على هذا الزواج!

– الشرع حلل له الزواج مرة أخرى.

– كيف، وفي عدن لا يسمح القانون أن يتزوج الرجل بثانية وهو متزوج؟!

– هذا جائز هنا في الشمال، وله أسبابه، وأنا مقتنعة بها.

أحضر العريس معه الكثير من الهدايا، وتَوجه الرجال إلى الديوان، وكنا قد جهزنا الماء البارد، وأشعلنا البخور، لا أتذكر تمامًا هل كانت تعلو وجوهنا الفرحة؟ أم كان مجرد حل لإنهاء مشكلتها؟!

سأله والدي إن كانت زوجته الأولى على معرفة بزواجه الجديد، لكنه قال إنّ زوجته الأولى مريضة، ويخاف أن يفاقم ألَمها ومرضها إن هو أخبرها الآن، ولم يعلم بأمر زواجه سوى أسرته، وتَمنى على والدي أن يسير موضوع زواجه بسرية عن زوجته الأولى، حتى يجد الفرصة المناسبة ويخبرها.

حارَ والدي، لكنه حين دخل حجرة النساء وواجه فريدة بما سمع من عريسها، طأطأت رأسها وقالت إنها تعلم بذلك وتقدّر ظرفه الاستثنائي، فلا داعي أن نصعّب الأمور.

قالت أمي لها:

– أغلب الرجال حين يريدون الزواج من أخرى يدّعون أن الزوجة الأولى مريضة، أو يقدّمون أي عذر آخر، وإنْ صح ذلك فهذا لن يجعلك سعيدة معه، فكّري في قرارك مرة أخرى.

– يا جماعة أنا مقتنعة بزواجي منه، والنساء هنا يقبلن من أزواجهن الارتباط بامرأة ثانية وثالثة.

– لم يحدث في عائلتنا أن تزوجت إحداهن بهذه الطريقة، أنتِ تجعلين من نفسك أضحوكة يا ابنتي. قالت والدتها.

لا أعلم حينها لماذا ارتبطت عندي عدن بوجه فريدة، فشروخ الحرب اتضحت في ملامحها، ألوانها الزاهية تكدست خِرقًا سوداء في حقيبة زواج، وأحلام الرفاق التي تناثرت أشلاؤها جمعت ما تبقى منها لتضعها في أحضان رجل آخر، بعيدًا عن حبها الوحيد الذي كان جزءًا من أحلام الرفاق المحترقة.

إذًا لم تكن موجودًا حال وصولنا إلى منزلكم، شعرت بالخيبة والراحة في آن واحد، أعجبني منزلكم، كان مبنيًا من الحجر الأسود القديم، يعلو أساسه عن الأرض بمترين أو ثلاثة، مدخله يفضي إلى حوش مسقوف بالخشب المطلي بالأبيض. تطل نوافذه على الجهة الأمامية والخلفية من المنزل، حوش أشبه بغرفة استقبال، يضم سريرين مغطيين بملاءات زرقاء منقوشة، وفي أحد أركانه دولاب زجاجي يحوي أطباقًا وأكوابًا زجاجية ملونة، وعليه مزهريات نحاسية. رائحة البخور تنبعث من الجزء الداخلي للمنزل. كانت ابنة عمتي أول من فتح لنا الباب، وبصوتها وأحضانها الحميمية أنهت توتري، ثم لحق بها من كانوا في المنزل، عمتي وألادها الذين كانوا يكبروننا سنًا. سأل والدي عنك، لتخبره عمتي أنك عند أخيك.

وهاجمتني ملامحك ونظراتك المثيرة للقلق حال حديث والدتك عنك، ما جعلني في حالة تأهب حين قامت بالاتصال بك في بيت أخيك، شعور خلّفته زيارتك الأولى لنا في صنعاء، لذلك ظننت أني أحسست بالراحة لعدم وجودك وقت وصولنا، لولا أن أثرًا من عطِرك كان عالقًا في هواء البيت، أو -هكذا خيل إليّ- ظل يحاصرني.

خليط من المشاعر الغريبة، لم أفهمها جيدًا، ولم أفهم سوى أنك لن تترك ما حدث بيننا، وستحصرني في زاوية قد لا أملك أن أُفلِت منها كما أفلتُ في ذلك اليوم.

فتحت عمتي غرفة الاستقبال، وشغّلت التكييف الهوائي، أخذت تتحدث عن الماضي وذكريات العائلة، فاكتشفتُ والدي من جديد، والدي العدني بنسخته القديمة التي لم أعرفها، فهو لم يكن يحكي لنا عن حياته السابقة إلا الشيء البسيط منها، وأصبحت الآن تُعرض على لسان عمتي.

كانت أمي تستمع بصمت، وتعلو وجهها ابتسامة مجاملة أعرفها جيدًا، وأعرف ما يدور في نفسها، فهي تتساءل الآن كيف لوالدي هذا العصبي والمتجهم في أغلب أحواله، أن يكون في زمنه الغابر ذاك الشاب الذي تتحدث عنه عمتي؟

فنادرًا ما اتفق والداي على شيء، ولم يبذلا جهدًا لذلك، ربما يكون الحب بينهما مختلفًا، الحب الذي لا يجب أن يظهر أمامنا، فهو نوع من العيب، لقد كانت منطقتهما المشتركة شائكة وملغومة بالنسبة لنا.

أخذتني ابنة عمتي الصغرى إلى الغرفة الداخلية، بعد أن انتهينا من تناول وجبة الغداء، فأخرجتْ من أحد الأدراج علبة من مساحيق التجميل، وتفاجأتُ حين وضعتْ أمامي ملابس جديدة كانت عبارة عن (تايير) مكوّن من قطعتين، فستان عاري الذراعين، يصل إلى تحت الركبة، وجاكيت قصير، دُهشت حقًا! فلماذ أنا بالذات دون أحد من إخوتي تقدم له هذه الهدية، وهذا الاهتمام؟!

ولم أجْرُؤ لأسأل مَن الذي اشتراه لي، وباقتراح مَن، لأني فهمت سر هذا الاهتمام. وبعد أن أكملتْ ابنة عمتي تزييني أخذتني إلى استديو تصوير قريب، ولأول مرة منذ أن بلغتُ العاشرة، أسير في الشارع دون عباءة سوداء تستر ملابسي، ولكني فضّلت أن أرتدي جوارب بيضاء لأغطي ساقَي.

أثناء خروجنا اعترضنا أخي بنظراته المنزعجة من هيئتي المتبرجة، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئًا في وجودنا بينهم لأول مرة.

أمّا بنات عمتي فكُنَّ يلبسن عباءة اللف العدنية التي تُوضَع من فوق الكتف وتغطي الملابس من تحتها بعد لفّها من الجهتين، وطرحة رأس تُبقي مقدمة الشعر مكشوفة، ما أجملَ ما كنت أراه هذا اليوم! لقد نسيتُ خيوط الشمس الساخنة، وهي تتموج مع خطوات النساء بألوان صنادلهن على أرجل مخضّبة، وأظافر قدمين تتباهى بانعطافات الدرع العدني من أسفل (الشيذر الستيم).

لم تكن عدن قط إلا بنسائها اللائي يكتبن تاريخًا من الروائح، ويرسمن لوحات تشكيلية تعبُر الطرقات.

شوارع من الرجال والنساء والأطفال بملابسهم الأنيقة، بطاولات وكراسي المقاهي الشعبية المتشبثة بتاريخها تنشئ أحاديث مستمرة لا تنتهي.

نساء عدن خارج المنزل امتداد طبيعي لداخله، يربطن بين أشكال الحياة، فالشارع كالبيت، كُنَّ أكثر تحررًا وثقة، فحين كانت النساء يتنوعن في ارتداء ملابسهن عند الخروج، كان ذلك جزءًا من طبيعة وجودهن، لا خلاف في ارتداء البالطوهات أو العباءات والشواذر، أو حتى الخروج بملابسهن العادية، وبين من يلبسن الأسود.

دخلتُ الاستديو التاريخي، حيث التقط فيه أغلب الشعب العدني صورهم، فصور بعض المسؤولين والمشاهير ما زالت معلقة على جدرانه. وكان للاستديو عدة خلفيات يقوم المصور بإنزالها حسب اختيار الزبون للخلفية المناسبة له، قديمًا كانت خلفية واحدة يقف الجميع أمامها.

لم أعرف أيضًا سبب أخذِهن لي للاستديو، ولماذا أنا فقط من طلبن منه الذهاب معهن لالتقاط صور للذكرى؟!

جلست على كرسي وثير مُغطّى بالريش الملون، أنزلَ المصور خلفية لمنظر البحر والجبال المحيطة به، والطيور المحلقة فوق قلعة صيرة، التُقِطت لي أكثر من صورة، وما أتذكره أني حصلت على نسخة منها وأنا أنظر إلى الجهة اليسرى مني، واضعة ضفيرتي على نفس الجانب، وذراعاي ممدودتان على ذراعي الكرسي. لم أكن مبتسمة بشكل كامل، فقط انفراجة بسيطة في شفتَي، ونظرة جانبية متشككة.

خرجنا بعد ذلك إلى سوق الزعفران، ومررنا بمطعم ريم) لتناول وجبة خفيفة من البطاطس المقلية،

والآيس كريم، سِرنا في حواري الطويلة وحافة حسين والدوابية، وكأني كائن آخر بهذه الهيئة الجديدة، ترافقني روائح مختلفة تنبثق من محلات العطور والبخور، ومحلات الحلويات الشعبية، أشكال وألوان الأقمشة المعلّقة التي نطلِق عليها (الدروع) الخاصة بلبس النساء السائد في عدن، أبهرتني وجعلت مني امرأة تستعد لخوض حياة ستكتب لها قريبا وتتصل بأعماق هذه المدينة، احتفظتُ بكل شيء أَمُرُّ به، وكأني أخاف أن يأتي يوم وأفتقده.

رنّ هاتف أخي، في الوقت الذي كان فيه يحشو فمه بأوراق القات، فأجاب بصوت مكتوم على المتصل، ثم التفت نحوي وناولني الهاتف وهو يسألني:

– لماذا تقفلين هاتفك؟ خذي ردّي على ابنة عمتك.

كان صوت ابنة عمتي متهدجًا، ترجوني أن أخبرها بكل صدق أين أصبحنا، فالساعة الآن قاربت الثامنة مساءً. أجبتها أننا سندخل عدن بعد ساعتين تقريبًا إنْ لم تعترضنا نقطة تفتيش صعبة، وشرحت لها صعوبة الطريق بسبب كثرة النقاط الأمنية.

لكني لم أشعر من حديثها معي بأسفها بما نمر به من صعوبة السفر، كل ما يهمهم أن نصل بسرعة، يبدو أنهم لا يعلمون بما يجري على الأرض، فهم لا يكلفون أنفسهم عناء الخروج والتنقل، فقد خبرت أسلوب حياتهم، حركتهم محدودة بين أعمالهم ومنازلهم، وقضاء الأوقات أمام التليفزيون، حتى الزيارات العائلية فيما بينهم هي نادرة جدًا تقتصر على المناسبات. أعدت الهاتف لأخي، وأنا مستاءة مما وصلنا إليه.

ابنة عمتي «ميرفت» هي الوحيدة في العائلة التي زارتنا مع زوجها لأول مرة بعد ارتباطي بأخيها، وكانت أقربهم إليّ وإلى أخيها، وما زلت أتذكر يوم استقبالها لنا وكانت لا تزال عروسًا، وأكثر ما أتذكره هي شرفة منزلها التي ارتبطت بوجودك.

فمِن خلف زجاجها رأيت خيالًا من دخان، كما كان كل ما يدور حولي أثناء تلك الفترة، ظلالًا لأحلام انتهت، وأخرى تحاول أن تولد، وحين أمعنت النظر في ذلك الخيال رأيت كفًا تمسك بسيجار، كنتَ جالسًا مواجهًا الشارع، لا يظهر منك سوى جانبك الأيمن، ولم أنتبه لوجودك حين دخلتُ لأغير ملابسي، وكنت قد بدأت بخلعها حين رأيت خيالك ودخان سجارتك، فأسرعت بارتدائها مرة أخرى، والخروج دون أن تشعر بي. كاد نبضي أن يفارق صدري.

لاحظتْ أختك ارتباكي، لم أعرف أنك كنت موجودًا عندهم منذ وصولنا عدن قبل يومين، وفي ذلك اليوم ارتديت فستانًا أزرق، والجوارب البيضاء الطويلة نفسها، فكنتُ أشبه بطالبة ترتدي زيًا مدرسيًا. أخذتني ميرفت وأدخلتني غرفتها لأتصرف بحرية تامة، ما كنت متأكدة منه أن الجميع متفق على ارتباطنا، دون أن يفاتحني أحد منهم بذلك، فما معنى ابتسامتها الغريبة حين رأت ارتباكي بسببك؟!

جلسنا للغداء بعد أن غيرتُ ملابسي بأخرى مريحة، شعرت بنظراتك فتحاشيتها قدر المستطاع، ولكنك تعمدت الاهتمام بي، فوضعت قِطع اللحم أمامي.

أمّا أخوك، فكان يقول:

– المرة القادمة ستكون العزومة في بيتك بعد زواجك قريبًا، وسنأكل من يد زوجتك.

عقّبت زوجته بقولها:

– كفاية عزوبية، نريد أن نفرح بك، هيا اِنْوِ فقط، العروسة موجودة.

تصادمت نظراتنا، ونظرت إليّ بحدة وتَحدٍ، والتمعت عيناك شغفًا وقوة، وكأنك تقول لي: لن ترفضيني هذه المرة.

كل ما كان يزعجني هو الاتفاقات الضمنية التي كانت تُدار بين أفراد العائلة، لم أكُن أُوضَع في الصورة، أو أن أحدًا من الطرفين يتبرع للحديث معي في مستقبل علاقتنا إنْ حدث وارتبطنا، وكأن كل شيء سيتم دون أن نناقش كل ذلك. لا أنكر أني كنت منجذبة لك بشدة، ولكني كنت قلِقة وخائفة منك. صمتَ الجميع وتحدثت التصرفات، وكأن اتفاقًا وقع في الظل، أو أن القدر هو الذي خَطّ كل حياتنا دون جدال.

وزارتنا ميرفت زيارة طارئة لنا في تلك الفترة التي أعقبت زواجنا بقليل، فلسبب ما تغير مسار طائرتهم العائدة من القاهرة فهبطت في مطار صنعاء، لا مطار عدن. كانت تحمل معها حقائب كبيرة وثقيلة، وعلى ما يبدو حينها أن شيئًا ما حدث بينها وبين زوجها.

كانا على علاقة حب متينة، ومثلًا يُضرب بهما بين الأزواج، فقد مَرا بفترة ارتباط دامت خمس سنوات قبل الزواج، وأسّسا منزلًا رائعًا. ولم يمر اليوم على زواجهما سوى أربع سنوات. حاولتُ أن أفهم سبب ملامح الحزن المختبئة خلف وجهها البشوش.

نزلتْ من الطائرة بتنّورة قصيرة وشعر يحلّق مع الهواء، كإحدى ممثلات السينما، تعلو وجهها لمسات هادئة من الزينة، أحسست حينها بفاصل زمني كبير بيننا وبين من هم في الخارج، بيني وبين عالم لا أعرفه إلا من خلال شاشة صغيرة، عالم محظور علينا، ولا يجوز أن نكون جزءًا منه.

بدا على زوجي الغضب حين رآها بتلك الهيئة، وقال:

– ألا تعلمين أنك الآن في مطار صنعاء، ولستِ في القاهرة؟ لماذا لم ترتدي العباءة والطرحة؟

– كان نزولنا هنا طارئا، ظننا أننا سنهبط في مطار عدن.

– لا يجوز أن تسيري بهذا الشكل حتى وأنت في عدن، الوضع تغير اليوم.

كانت القاهرة حلمها القديم، كما كان حلمها أن تلتقي السندريلا، قلتُ:

– تقصدين الفنانة سعاد حسني.

– سعاد حبيبتي، أشعر أنها أنا، تعاني هذه الفترة من المرض، لا تزال صغيرة في السن. كل شيء جميل

وناعم وبريء حياته قصيرة، حضرت لها فيلم «الراعي والنساء» في السينما، وحين رأيتها كنت أرى التعاسة على وجهها، وكأنها تؤدي دورها الأخير، وعرفت أنها كانت تعاني أثناء تصوير ذلك الفيلم من آلام شديدة في عمودها الفقري.

– هذا واضح انعكاسه على وجهك، يبدو أنك حزينة حقًا عليها.

كنت أستمع باهتمام لِما تقوله عنها، وأدرِك الغصة التي تحاول أن تخفيها خلف مظهرها المتألق كتألق السندريلا.

وقتها أحسست أنهما شخصية واحدة، فقد كانت ميرفت تعاني من شيء ما، ولم تكن كما عرفتها يوم عزومتهم لنا في بيتها قبل زواجنا. وقفزت إلى ذهني فجأة فريدة، وألحّ على خاطري سؤال عن الحب والارتباط، في حين أن علاقة ميرفت قد انتهت بالزواج ممن تحِب، فشلت فريدة في ذلك، وكان السؤال لماذا رفضت أسرة زوجي تحرر فريدة وعملها، في الوقت الذي كان فيه بنات عمتي منفتحات ويعملن، لكن ما اعتقده أن فريدة كانت تختلف عنهن، فهي صحفية وثائرة، وتعتنق أفكارًا جديدة، ومتصلة بالعمل الحزبي.

كانت ميرفت تُسِرُّ لأخيها وتقول:

– لقد تغير كمال. أصبح معظم وقته صامتًا، يتحاشاني قدر استطاعته. من شهرين وقبل أن نسافر معًا إلى القاهرة، كان يبدو شخصًا آخرَ، لكني حاولت أن أفهم سبب تغيره المفاجئ هذا دون فائدة، واعتقدت أن السفر سيعيده إلى حالته الطبيعية.

لاحظنا جميعًا تغيره، عيناه شاردتان معظم الوقت، يدير ظهره لنا ويركز في شاشة التليفزيون وكأن لا أحد حوله، يرد باقتضاب إن وجَّه أحدهم إليه حديثًا ما.

ربما هذه اللحظات التي يمر بها الحب، حين يبقى محصورًا فيموت ببطء أو يصيبه المرض، قد يكون الحب مثل الطائر لا يحب الأقفاص، ولا يخضع للتفسيرات والشروط.

بقيتُ واجمة أتأمل هذه الحقائب المشحونة، ربما هي أيضًا تريد أن تعبّر عن ضيقها، وتنفجر في وجوهنا، كما كان زوجها كمال جالسًا بهدوء كإحدى هذه الحقائب، حين قال فجأة:

– ما الداعي لكل هذا الحِمْل الذي أعاقنا في المطار، واستنفد طاقتنا في أسواق القاهرة؟

وحين التفتَ إليه زوجي، واصل قوله:

– أصرّت على أن تشتري للجميع، حتى صديقاتها، ولم تفكر فيما سيحدث لنا في المطار!

هل أثقلت ميرفت العلاقة بينهما كما أثقلت هذه الحقائب؟ وكما يبدو لي أننا نثقل علاقة كل شيء، ونُحمّلها

بما لا تطيق، فيصعب علينا الاستمرار في التقدم.

في هذه اللحظة أدركت وهم البناء، فهو في الوقت الذي يُشيّد من مكونات عديدة، يمكن في أية لحظة أن يتحول إلى ذرات من رماد.

علاقات نحسب أنها على قدر كبير من المتانة، وهي أوهى مما نتخيله، كل ما يربطنا ببعضنا، الأسرة، والأقارب، والوطن، معانٍ قد تُشعِرنا بالأمان، لكن الحقيقة الكائنة خلف كل ذلك هو الصدام والانفجار، فكيف نحافظ على الحب؟

جرّت إحدى الحقائب إلى الداخل وهي تقول:

- الرجال لا يحبون التسوق.

وأخرجت منها عباءة، كتلك التي نشاهدها في المسلسلات المصرية، لفّتها كما تلفّها نساء مصر، وأخذت تضحك وتسألني:

- ها.. كيف أبدو؟

- رائعة.

- سأترك لكِ شيئًا للذكرى من مصر، هذه ميدالية تجلب الحظ، خنفساء يسمّيها المصريون الجُعران.

وقتها لم تستهوِني الهدية، لكني احتفظت بها وبقيتْ معي، فاستخدمتها لمفتاح المنزل، فقد تجلب لي الحظ، وحين حكيت لبعض زميلاتي في المدرسة عن الجُعران، سخرت إحداهن واتهمتني بالكفر لأني أؤمن بمعتقدات كافرة، ولكني كنت أكثر عنادًا حينها، وصممت على أن يبقى الجُعران معلقًا بمفتاحي، بل إني أخبرتها أن لدينا بعض التماثيل المصرية القديمة.

كان الجو في ذلك اليوم ربيعيًا، وبينما أنا أمسِك بالجُعران، بدأت السماء تمطر، ففتحنا نوافذ الفصل، وهتفتُ بصوت عالٍ حتى تسمعه زميلتي: بركة الجُعران فتحت لنا السماء، وكانت نوافذ الفصل مفتوحة فشاهدنا قطرات المطر التي تلِح علينا بالخروج للساحة، فأخرجت منال رأسها من إحدى النوافذ لتقع بعض القطرات على وجهها وهي تقول ضاحكة:

- قطرات مطر الربيع ستجعل وجهي مشرقا، هكذا قالت أسطورة الإله عثتر.

- أي أسطورة هذه؟ أنا لدي هذا الجُعران الذي سيجلب لنا الحظ، ما لكِ والإله عثتر؟!

- لا تكفري بإله السبئيين يا فتاة، حتى لا تُمسخي مخلوقًا آخرَ!

- يا سلام لو تسمعك البنات سيتهمونكِ أنتِ أيضًا بالكفر.. هههههه.

– هل تعتقدين أننا يجب أن نؤلف مسرحية نطلق عليها عنوان «عثتر والجُعران».

– مثل قيس وليلي.. هههههههه

ضحكنا طويلًا، وقلت لها بجدية:

– واللهِ فكرة حلوة وعنوان جميل، لكن من سيكتب النص؟

– دعي النص جانبًا الآن واستمتعي بقطرات المطر.

كنا نتلهف للخروج إلى ساحة المدرسة، لكن المشرفة الاجتماعية دخلت الفصل، وأمرت بإغلاق النوافذ، وتحطم أملنا في إشراقة الربيع على وجوهنا، كانت عينا المشرفة الصغيرتان تصطدمان بحافة النقاب الموضوع على وجهها، فترمش كثيرًا، مما يشعرنا بالتوتر حين نركز في عينيها المتضايقتين، كانت تتحدث وتشدّ قليلًا طرف نقابها من أسفل حتى تبعد حافته العليا عن جفنيها.

– اسمعن يا بنات، قررت إدارة المدرسة أن تكافئ الفصل الدراسي الذي يقوم بعمل مكتبة صغيرة خاصة بفصله، وسوف نخصص يومًا في السنة لإقامة معرض للكتاب، وسيقوم كل فصل بعرض كتبه في هذا اليوم، وسينال الفصل الفائز جائزة وتكريمًا، فما عليكن إلا أن تجمعن مبلغًا لعمل رفوف خشبية، وجمع الكتب المفيدة والمناسبة لمكتبة فصلكن.

ابتهجتُ أنا ومنال لهذا الخبر، فالكتب بالنسبة لنا عالمنا الجميل. ودارَ نقاش بين الطالبات والمشرفة، وبدأ البعض يتهكم من فكرة المكتبة

– تكفينا كتب المدرسة؛ لأننا لن نقرأ شيئًا آخر.

– ومِن أين نأتي بالكتب؟ لم أرَ كتابًا واحدًا في منزلنا.

– قالت المشرفة:

– يا بنات، هذا الموضوع تشيجع للقراءة في وقت الفراغ.

وظَل موضوع المكتبة دائرًا بين الطالبات، ونسينا قطرات مطر الربيع.

مَرّ أسبوع على تجهيز مكتبة الفصل، أحضرت مجموعة من قصص كانت عبارة عن أساطير الشعوب، برسوم ملونة، وأحضرت بعض الطالبات مجموعة من الكتب المتنوعة، كانت أغلبها دوريات، ومجلات، والبعض انتقين كتبًا دينية وبعض الكتيبات التي نراها على بسطات الشارع، أمّا منال فقد جاءت ببعض الكتب الاشتراكية، ومنها كتاب لكارل ماركس.

جمعنا الكتب ورتّبناها على أرفف المكتبة الصغيرة. وسط ضجيج الطالبات دخلت المشرفة لتبارك جهودنا،

وتوقفت أمام عناوين الكتب، فإذا بصوتها الحاد يكتم ملامحنا السعيدة.

– يا سلام! من منكن تبرعت بكتاب ماركس؟

التفتُ نحو زميلتي منال وهي تقف بشموخ وفخر، بعد أن رفعت يدها وهي تقول:

– أنا يا أستاذة.

– ومن أين أحضرته يا فالحة؟

– من مكتبة والدي في البيت، لكني استأذنته على شرط أن أعيد كتبه نهاية العام.

– الأفضل أن تعيديها له من الآن، لأنها كتب كفر وإلحاد، أكيد أنتم من الجنوب. والفالحة الثانية أيضًا التي أحضرت كتب الأساطير، تأخذ كتبها وتحرقها، لأنها قصص تروج للوثنية.

كانت صدمتنا كبيرة، فنحن لم نكن نعتبرها كتبًا للكفر، لكن المشرفة انهالت علينا بنصف ساعة من الوعظ عن خطورة هذه الكتب التي تهدد الدين الحنيف وتلوث الإسلام.

كانت بقية الزميلات ينظرن إلينا بريبة، ولم تسكت منال على ذلك، ووجّهت بجرأة للمشرفة سؤالها، إن كانت قد قرأت هذه الكتب حتى تحكم عليها؟ وكان رد المعلّمة قاطعًا مانعًا:

– لا داعي لقراءتها، فماركس والكتّاب الشيوعيون كفار وملحدون!

رفعت صوت الراديو حين بدأ برنامج «أوراق ملونة»، صوت المذيعة، عايدة الشرجبي، كان نافذة أخرى أتنفس منها حين أصبح عالمي أضيق مما كان عليه قبل الزواج.

وضعت قطع الدجاج في الحوض لأغسلها، والمذيعة تقول: شاب في الثالثة والعشرين من عمره، ابتكر نظرية رياضية خطيرة، بينما هو عائد إلى بيته عقب حصوله على درجة علمية، إنه إسحق نيوتن مكتشف الجاذبية الأرضية.

وكأني أستمع لأول مرة لكلمة الجاذبية، بدوتُ لحظتها وكأن قدمَي مسّمرتان في الأرض، الجميع يجذبني نحوه ويعيق حركتي، والجميع تجذبه الأرض للأسفل، هل هذا يعني أن جاذبية الأرض سبب لقانون الارتباط الاجتماعي، وكل منا يحمل قيوده ليكبّل بها الآخر؟!

ماذا بعد أن اكتشف نيوتن الجاذبية؟ حاول الإنسان أن يطير، ويكسر قانون الأرض، وطار فعلًا، وحلّق عاليًا، واخترع أجنحته، وأنا هنا لا حيلة لي إلا أن أخلق أجنحة لأحلامي الوهمية التي تبدو غريبة لمن هم حولي، وخصوصًا زوجي.

أكملت تنظيف قطع الدجاج وبدأت في إعداد الغداء، روتين يومي لم يتغير منذ زواجنا، ولا يختلف عمّا كنت أقوم به في منزل أسرتي. لا جديد يأتي معه حين يفتح باب الشقة عائدًا من عمله، فقط القليل من الحب الذي كبّله قانون الارتباط. لقد وضعنا أسوارنا مسبقًا، أولها التفكير، ثم هذه الحارة التي كُتبت عليّ لترافقني سنوات طويلة، وسكانها الذين لا يتغيرون، بل يتكررون بالطريقة نفسها لتتسع مساحة الحارة وتضيق الأحلام.

لماذا لم يطُل أمد الحب؟ ماذا لو أننا قضينا زمنًا في الحب فقط دون أن نُقدِم على الزواج؟ ربما سنكتشف بعد فترة أننا غير صالحين للحياة معًا. هناك فروق جوهرية نتحايل عليها، ونهملها ولا نعترف بها، وما نقوم به دون تفكير هو اغتيالها، لنصبح ذواتًا مسحوقة تتعلق بالآخر، والحقيقة أنها تتلاشى.

كان جرس الباب يرن وأنا غارقة في أفكاري، وانتهى برنامج «أوراق ملونة».

دخل واجمًا وهو يقول:

- ساعة حتى تفتحي الباب!

ورمى بكيس الفاكهة الذي كان في يده، وحين سألته إذا كان قد أحضر ما طلبته منه، ثار دون أن أكمل جملتي، فتسمّرتُ كعادتي. أكملت ما أقوم به من تجهيزات بعد أن أغلقت الراديو. ودون أن أسأله عن سبب

غضبه، وكما هي ردة فعلي المعتادة ألوذ بالصمت. لم أسأل نفسي عن سبب معاناته، والذي كان يعبّر عنها بهذه الطريقة. كان قلِقًا دائمًا، ومترقبًا لشيء لم أفهمه إلا مؤخرًا. كان كبريائي يمنعني من أن أسأله، وفي الوقت نفسه لم أمتلك الشجاعة في الرد أو الغضب، أدخل غرفة النوم وأتركه، وهو بدوره كان يتجاهلني ويتركني دون أن يحدّثني بمشاكله وبما كان يدور في نفسه، كان الصمت فقط هو ما ينفجر بيننا، وتمر أيام لا نتحدث فيها، أكون فيها مع الكتب والمجلات وأشرطة الأغاني، وهو الشيء الجميل الذي توفر لي في تلك الفترة.

أعيش معها، وأسافر عبر محطات كثيرة مع كل ما أقرأه وأسمعه، كان يتشكل عالمي الموازي الذي يخرجني من مساحتي وزمني المحدود، فأحلامي البسيطة لم تكن سوى تفاصيل حب لم أجدها، تختصر بلقاء جسدي مبتسر ونادر، وأصبحت الحياة مع من أحببته وتزوجته مجرد مهام منزلية فقط.

كنت أحتاج لمغامرة، والمغامرة بمعناها البسيط الذي يتناسب مع أجوائنا الاجتماعية المحصّنة بأسوارها، مثل أن كان عليه أن يرتب لشهر عسل نقضيه في مكان جميل، أو نقوم برحلة ما في أي مدينة ساحلية، أو نصعد إحدى هذه الجبال العالية المحيطة بصنعاء، كما يفعل العشاق، وكما تصنع العائلات في الإجازات الأسبوعية، وحين كنت أطلب منه يومًا أن «نغير جو»، يرد بشيء من اللامبالاة:

– وماذا ستفعلين أمام البحر؟ هل تعتقدين أنها متعة حقيقة؟ كله زائل وفان!

– تغيير جو، فنحن لم نسافر معًا منذ زواجنا، أو حتى نتجول في السوق، أو أحد المطاعم.

حين كنت أتحدث مع منال عن مشكلاتنا هذه كانت تقول:

– لم أفهم ما علاقة ديمومة الحياة أو فنائها بالسعادة، هل يجب علينا ألا نشعر بها حتى لا نقع في وهم الحياة، ونظل مترقبين النهاية؟!

تمر الشهور وقد حفظت جدران المنزل، فهناك شق في حائط غرفة النوم، وإن كان غير مرئي بسبب الطلاء، كما أن خشب النوافذ القديم بدأ يصدر أنينًا خفيًا كل مساء، ربما أصبحت كساعة جدار تدور في مكانها. أنهض صباحًا أجهز الإفطار، وأذهب لأوقظه كل ربع ساعة إلى أن يقرر النهوض بوجومه اليومي نفسه، مرهق من بقايا منوّم يأخذه كلما تعسّر نومه، وقوفه أمام المرآة نصف ساعة، تناوله الإفطار في عشر دقائق، احتساؤه للشاي ثم تدخين السجائر، خروجه الدائم متأخرًا عن موعد دوامه اليومي، صفقه للباب بعصبية، تصرفات كانت تحدث مرارًا، ونادرًا هي الأيام التي أصبحنا نقضيها دون توتر.

أتنفس بعد خروجه فيبدأ يومي، أقوم بفتح الراديو، أو تشغيل الأغاني من كاسيتات لمن يقع في يدي من فنانين، أرتّب المنزل، وأنظف ما خلّفه في ليلته الفائتة في المجلس، أفتح النوافذ، وإن رغبت في الخروج فليس

لي إلا أن أتجه إلى منزل أسرتي الذي لا يبعد عن منزلي سوى أمتار.

كنت أوافقه في أفكاره إيمانًا مني بطاعة الزوج الذي سيُدخلني الجنة، اقتنيت في تلك الفترة شرائط الكاسيت المتداوَلة للعديد من الدعاة، كانت موجة التدين تزداد تأثيرًا بين زميلاتي وأغلب المحيطين بي، أصبحت أفكر في عذاب القبر كثيرًا، وأمست أغلب حواراتنا عن الآخرة ونعيم الجنة.

ودخلت العالم الذي كبح خيالي وطموحي في الحياة، أبدلتُ بخماري الطويل نقابًا وكفوفًا سوداء لتغطية كفي، حفظت الكثير من الأدعية، وآيات الحفظ من العين والحسد، والسوَر التي تجلب الرزق، وأخرى تقي من عذاب القبر، لم أكن أخطو من المنزل إلا بإذنه، حتى لو شاهدت الأفلام أو المسلسلات، فهي من قبيل أن تعلّمني العظة والعبرة، ولم يكن وقتها يُعرَض على القناتين الوحيدتين سوى ما يماشي عادات المجتمع وتقاليده، وإن كانت هناك بعض البرامج الثقافية والفنية التي كانت تجذبني، أحاول ألا تأخذني بعيدًا عن هدايتي.

مرّت سنوات وزواجنا على إيقاعه المعتاد نفسه، وأنا أحاول أن ألتزم بالقواعد التي فرضها الزواج، أخاف أن أبتسم في وجه أحد من أقاربي، أو أجالسه، أو حتى أن أمد يدي للسلام، وامتد خوفي حتى من النظر في وجه معلّمي وهو يشرح الدرس.

إلى أن قابلت تلك العجوز وقرأتْ لي كفي، كان حدثًا عابرًا ذكّرني بفلسفة كونديرا عن الحدث العابر في إحدى رواياته حين قال: «الحدث العابر ليس محكومًا عليه أن يبقى عابرًا إلى الأبد، بما أن أي حدث مهما بلغت تفاهته يستطيع أن يتسبب لاحقًا في أحداث أخرى، فالأحداث العابرة أشبه بالألغام، لا ينفجر أغلبها، لكن قد يأتي عليها يوم وتنفجر».

كان ذلك الحدث صباح أحد الأيام، وأنا متجهة إلى المدرسة، أقطع مساحة واسعة وخالية تفصل بين حيّنا والحي الذي تقع فيه مدرستي، غالبًا ما كنت أرافق صديقتي منال، ولكنها في هذا اليوم تخلّفت عن صحبتي لوعكة صحية ألّمت بها.

لم أكن أخاف من السير وحدي، بل كنت أطلق عنان تأملي في هذه المساحة الشاسعة والفارغة إلا من مقبرة تتناثر قبور موتاها دون شواهد، ولم يكن للمقبرة سور يفصلها عن المارين بها، فلا فاصل هنا بين الموت والحياة، فمن الطبيعي أن تطالعنا تلك الأرواح النائمة.

سِرتُ ذلك اليوم إلى أن وصلت لحدود المقبرة، شاهدت امرأة عجوز تجلس على حجر وفي يدها صُرّة من قماش قديم، وفي اللحظة التي كنت سأتجاوزها ألقت عليّ السلام ومدت لي كفها طلبًا للصدقة، توقفتُ وفتحت حقيبتي، وأخرجت ورقة نقود ووضعتها في كفها، أمسكت العجوز كفي بقوة، وخِفتُ من عينيها

اللتين غاصتا داخلي، حاولتُ أن أتحرر من قبضتها القوية التي لا تناسب امرأة في مثل سنها، لكنها سارعت وقالت لا تخافي! بسطتْ كفي بين أصابعها، ونظرتْ فيه وأردفت:

- لا يجب أن تكوني متزوجة!

فقلت لها وكأن لساني انطلق رغمًا عني:

- بل أنا متزوجة.. اتركي يدي.

ضربتْ على كفي بسبّابتها وقالت مرة أخرى:

- لا يجب أن تكوني متزوجة!

أطلقتُ ساقَي دون أن أعقّب بكلمة، وبعد خطوات التفَتُّ ورائي، فلم أجد سوى صُرّتها موضوعة على الحجر!

يبدو أنها غاصت في تلك القبور، وظل قلبي يرجف إلى أن وصلت إلى المدرسة، ولم أعد أسير بجانب المقبرة، لكن كلامها بقي عالقًا في رأسي، أستعيده كلما علّقتُ تقويمًا جديدًا، وأفكر حينها بضرورة إنهاء حياتي الزوجية يومًا ما، وها هي سنة جديدة لم أعلّق تقويمها هذه المرة.

صحوت الفجر ولا يزال التيار الكهربائي مقطوعًا، قضيت الليلة الماضية في المذاكرة، فاليوم امتحان مادة التاريخ، ولم يتبق معي سوى مراجعة ما حفظته. كانت الليلة الماضية تنذر بحدوث شيء ما، فاستمرار انقطاع التيار إلى الآن ليس طبيعًا، ولم يكن هناك ماء في الحنفية لأتوضأ، لكنّا دائمًا نحتفظ بماء احتياطي. وقفت على سجادة الصلاة، وبدأت أتمتم بالآيات التي اختلطت بأحداث المعارك وفتراتها التاريخية التي كنت أراجعها في ذاكرتي، معارك كثيرة، ووقفت عند إحداها عندما شعرت بالأرض تهتز تحت قدمَي وبضغط جويّ غريب، وبمجرد أن وضعت جبهتي للسجود، هز انفجار مرعب لم أشهده من قبل حارتنا الساكنة، انتفض زوجي من فراشه، وهرعت نحوه وأنا أقول بصوت مبحوح:

– ما هذا؟

ثم سمعنا أصوات رصاص، وعرفنا فيما بعد أنها مضادات طيران. أسرع زوجي وأخذ الراديو، وأدار شوكة المحطات، وهنا صُدمنا بالأخبار التي سمعناها، صاروخ من نوع اسكود سقط في منطقة الحصبة، ما أسفر عن سقوط عدد من الضحايا.

ملأ الرعب أوردتي، وبدأت ركبتاي تؤلماني، فتوجهت لأكمل صلاة الفجر وأتلو الآيات تحسبًا للموت من معركة لم تُكتَب بعدُ في كتاب التاريخ. أتممت الصلاة وتوجهت نحو زوجي الذي تجمدت ملامح وجهه، وجحظت عيناه، ظل ممسكًا بالراديو يحرك شوكة المحطات، هنا إذاعة جمهورية اليمن الديمقراطية، بيان إعلان الانفصال.

ضرب على رأسه بيده، وتجعدت ملامحه، كنت لا أدرك ما معنى أن يُعلن الانفصال بعد ثلاث سنوات من تحقيق الوحدة، لم يكن زوجي ليشرح لي سبب رعبه الحقيقي، كنت خائفة من الموت، أمّا هو فكان خوفه مختلفًا.

أطلت السجود والدعاء، وأنا أتصور نفسي وقد اختفيت كذرات أثير محطة الإذاعة التي توقفت فجأة.

كان يتحدث وتنطلق الحروف من تحت أسنانه بصعوبة بسبب توتره، وهو يعارك توقف البث، وفجأة انتفض وطلب مني أن أغير ملابسي لنذهب إلى بيت أسرتي، حتى أشعر بالأمان قليلًا، أخذت كتاب التاريخ ودفاتري.

بدأ ضوء الصباح في الظهور ونحن نتجه إلى منزل أسرتي، الشارع هادئ، لا صوت سوى صوت العصافير، كان جميع أفراد أسرتي قد نهضوا.

باشرتنا أمي بصوتها القلِق وهي تقول:

– الحمد لله أنكم هنا بيننا، لقد صحونا على صوت الانفجار، اهتزت نوافذ المنزل، كيف ستؤدون اليوم الامتحان؟ لا بُد أن نعرف ما الذي يحدث، هل هي الحرب؟

– بادرها والدي: صلّي على النبي، بإذن الله خير

ووجّه حديثه إليّ: أكملي مراجعتك واذهبي الامتحان، سيأخذكم والد منال بسيارته مع صديقتك للمدرسة.

شعرت بالطمأنينة قليلًا، وتمنيت للحظة أن يصحبنا زوجي وينتظرني خارج المدرسة إلى أن أُنهي امتحاني، لكنه كان مشغولًا بجهاز الراديو وما يحدث.

ركبت بجوار صديقتي في سيارة والدها، ولحقت بنا خاتمة وهي تقول:

– أتمنى أن تكون الحرب حتى لا نذهب للامتحان، لأني لم أذاكر جيدًا.

ردت منال بانفعال واضح:

– هل تعرفين ما معنى الحرب يا مجنونة؟ معناها أننا سنموت أو نتشظى يا شاطرة!

خاتمة أكبرنا سنًا، لكنها تركت المدرسة لسنتين بسبب زواجها وعادت إليها بعد أن تركته، لا أتذكر أنها اهتمت بالدروس طوال العام، فقد كانت تُضبط في بعض الأوقات أعلى درج الدور الأخير في المدرسة، وهي تقرأ رواية من الروايات الرومانسية.

وكانت أغلب الطالبات يتداولنها سرًا، إلى أن جربتُ مرة وقرأت إحداها حتى أصبحت أنا أيضًا مدمنة عليها، لكني كنت أقراها في أوقات فراغي. أتذكر أول رواية منها جاء بها زوجي صدفة ضمن بعض المجلات والدوريات، لم يكن يعلم أنها رواية غارقة في التفاصيل الرومانسية التي ستصبح فيما بعد عالمي الجميل.

ونحن في طريقنا لم نسمع أي انفجارات أو مضادات للصواريخ.

وصلنا إلى المدرسة وأدخلنا والد زميلتي إلى حوشها، كانت مديرة المدرسة تتحدث في الميكرفون عن ضرورة عودتنا إلى المنازل حيث إنّ الأوضاع مقلِقة؛ فلقد تسلمت الإدارة إشارة بتأجيل الامتحانات إلى إشعار آخر.

تهلل وجه خاتمة وعُدنا أدراجنا.

كان والد صديقتي منال أحد القادة الاشتراكيين الذين قَدِموا من الجنوب قبل أن تندلع أحداث يناير 86 بسنوات، بل هو من أوائل من سكنوا هذه الحارة، وتذكرت ذلك الكتاب الذي أحضرته منال لمكتبة المدرسة

وسألتها عنه.

– آه نعم تذكرت، حينما وصفته المشرفة أنه كتاب يدعو إلى الكفر. لقد أعدته مرة أخرى إلى مكانه في مكتبتنا قبل أن يكتشف والدي غيابه، فهو من الكتب المهمة بالنسبة له، كنت أسمعه دائمًا يناقش أخي ووالدتي في أفكاره، ويقول إنّ رفاقه لم يستطيعوا أن يفهموه جيدا، فاتخذوا من شعارات الماركسيين، وخصوصا أقوال لينين، منهجًا لسلطتهم وفتاوى ليبرروا تصفياتهم لبعضهم البعض.

– أي أقوال؟

– مثل قول لينين «إذا وجد حزبان شيوعيان في بلد فمعناه أن أحدهما خائن».

وحين شهد والدي استبعاد العديد من الرفقاء، واعتقالهم وتصفية البعض منهم، تأكد أن دوره سيأتي؛ لأنه كان معارضًا لبعض توجهاتهم السياسية. فتركهم وانتقل إلى هنا.

أخبرتني أن والدها كان يؤكد ليلة أمس أنّ الوضع غير مطمئن، وقد تنشب المعارك في أي لحظة.

لدى منال شغف كبير لفهم السياسة ومشاركة ما يتم الحديث عنه بين أفراد أسرتها، وكنت أستقي منها الكثير من المعلومات والأفكار التي لم تكن أسرتي تهتم بها. حتى زوجي الذي كنت أعتقد أن عمله في الصحافة سيجعله يتحدث ويشاركنا فيما يحدث من حولنا، لم يكن يخوضها معي، ولكنه قبل شهور كان يتحدث عن التوتر الذي كان بين الشركاء منذ اللحظة الأولى لتوقيع الوحدة، وكنت أقرأ بعض مقالات الصحفيين آنذاك، والأخبار التي تنشرها صحف الأحزاب عن أزمة حكومة الوحدة.

كان أبي واقفًا في حوش المنزل عند عودتنا دون أن نؤدي امتحان التاريخ، وكان من الأفضل أن نكتب نحن تاريخ هذا اليوم بطريقتنا. كان بعض الجيران مجتمعين أمام دكان العديني، منتظرين أخبار ما يجري.

دعا والدي جارَنا، أبا منال، للدخول وهو يقول:

– إن نجح مشروع الانفصال سينتهي ما تحقق في الشمال من حراك سياسي ديمقراطي، وستُفَك أواصر الارتباط التي تشكلت خلال فترة الوحدة.

ردّ جارنا:

– وهل كنت تظن أن الوحدة ستستمر بهذا الشكل؟ ما سيكون أحد أمرين، أولهما: سيعود الصراع بين قوى الجنوب مرة أخرى، وستبقى جبهات القتال مفتوحة بين الشمال والجنوب. وثانيهما: إن بقيت الوحدة، فستبقى البلد بيد قوة واحدة تنهي أهدافها.

– هناك من كان غير راضٍ عن هذا الحراك الشعبي الذي بدأ يهدد القوى التقليدية، وإذا لم ينجح اليمنيون

في استعادة مشروعهم الوحدوي الحقيقي، فالسلطة ستؤول لقادة الحرب، والطرف التقليدي الذي يتغنى بالجمهورية وهو يحمل جيناته القبَلَية.

– هههههه، ولا يزالون يأملون في عودة الإمامة، والحق الإلهي، وأوهام السلالة، لكن بطريقتهم.

كنتُ ومنال نستمع لهما، حين صاح بهم أحد جيراننا فدخلنا المنزل، كان زوجي يحاول أن يعود إلى نومه وقت أن سألته:

– هل ستذهب إلى العمل؟

نظر إليّ بخوف لم أره من قبل، وردّ بوجوم:

– هل تعتقدين أن هناك من سيذهب، الناس في حرب وأنتم تتعاملون كأن الوضع طبيعي!

لم أفهم ما يقصد حينها، إلا أنه كان متوترًا، إلى حد أن برزت عروق وجهه. قلت له:

– أنت قلِق ومترقب دائما، تكبّر الأمور دون داع.

– تعالَي واسمعي، المعسكرات مشتعلة شمالًا وجنوبًا.

اقتربت منه، وقلت له أتركها على الله، فنظر إليّ بطريقة لا تعبر سوى عن استخفافه بكلامي.

تركته وانصرفت وقد اشتعلت حرب أخرى داخلي، معركتي أنا معه التي لم أستوعب أسبابها، فقد بدأت منذ فترة طويلة، ولكنها تتعقد كلما مَرّ عليها الوقت.

كان والدي ووالد منال لا يزالان في حوش المنزل يتحدثان، وكان صوتهما حزينًا وهما ينقلان حقيقة ما حدث قبل هذا اليوم، وقفت بجانب والدتي عند مدخل الصالة نستمع لما يقولانه:

قال والد منال:

– هل كنت تعتقد أنهم كانوا سيغضّون الطرف عمّا كان يحدث في عملية نقل ألوية الجيش الجنوبية إلى المناطق الشمالية ومحاصرتها؟

– ليس هذا فقط، بل ما كان يحدث من تهميش للجانب الجنوبي في القرارت السياسية، وعدم تقبّلهم لتلك الوثيقة التي وقّعوا عليها في عمان.

– وقد بدأت الشرارة الأولى للحرب قبل شهور من الآن، حين اندلعت المواجهات في (أبين) بين ألوية شمالية وجنوبية، وما حدث في ذمار.

– لم يرضَ الجنوبيون بعدُ نتائج الانتخابات، التي حسمت دفة السلطة للقوى الشمالية.

تركتهم ولم أفهم كثيرًا تفاصيل ما حدث، ولكنني أحسست بما سنواجهه قادمًا، لا سلام على هذه الأرض كما يبدو، هذا ما فهمته من كتاب التاريخ الذي حفظت دروسه.

وتتابعت الليالي الداكنة، واختصرنا علاقتنا الزوجية عند حدود الطعام المشترك، لم يكن لدينا وسيلة لنعرف بها ما يجري غير الراديو. ازداد صمتًا وتجهمًا، يتنقل بين محطات الإذاعة طوال الوقت، محطة صنعاء الإذاعية فقط هي التي تبث الأخبار، لم نكن نسمع سوى أن أنصار الوحدة يتقدمون على أنصار الردة والانفصال، كما تنقله وسائل الإعلام هنا في الشمال.

انقطعت اتصالات الهاتف الأرضي، لم يكن غيرها في ذلك الوقت وسيلة للتواصل، فازداد قلقه على أهله في عدن، المدينة التي تتلقى النصيب الأكبر من الحروب، فكيف سيكون مصيرها بعد هذه الحرب.

ما كان يقلقني أكثر من الحرب صمته الغاضب، عيناه الغائمتان، وفكّاه المتشنجتان بشكل دائم.

أصبحنا بعيدين أكثر، لم يكن يشتاق حتى إلى لمسي، وكنت أكتفي بالنوم وبقليل من الدموع.. ستجرحنا أيضًا هذه الحرب أكثر.

كنت بين أسرتي أجلس معهم لنتابع من شاشة التليفزيون الصغيرة أحداث ما يجري حين يعود التيار الكهربائي، ووجه زوجي فقط كان يكشف أبعاد الصورة والأحداث التي تدور.

في يوم ما من أيام هذه الحرب دخلت جارتنا شوعية لتنقل أخبارًا سمعتها من زوجها، تقول إن المعارك حامية في معسكرات الجنوب، وصنعاء تحاصر (الحوطة والوهط) في محاولة مستميتة لدخول عدن.

كانت والدة منال أيضًا جالسة معنا تستمع لحديث شوعية، وكانت تقضم أطراف أظافر يدها، لكن مجلس الأمن أصدر قراره بضرورة وقف إطلاق النار بين الطرفين.

– صنعاء مُصمِمة على دخول عدن، أرسلت خمسة ألوية من هنا لتحويطها، ولن تستمع لقرارات المجلس، هذا ما قاله زوجي، وقال إن خطاب حكومة عدن ضعيف، وهم من يطالبون مجلس الأمن بالتدخل.

– احمدي الله أنه لم يأخذوا زوجك معهم، وأبقوه في مكانه هنا.

– لكنهم ينتظرون في أي لحظة سقوط صاروخ فوق رؤوسهم.

كنا نشعر بأن درجات الحرارة ارتفعت عن المعتاد عليه، والخوف سيطر على الجميع، هذا الخوف الذي غلّف كل شيء منذ ولادتنا، الخوف الذي يشعل كل حروبنا.

وكل واحد يفسر خوفه بطريقته، فخوف أمي هو ألا نجد المواد الغذائية الضرورية، كما هو حال معظم

الناس، فقد تأهب الجميع لغزو المحلات التجارية، وتخزين المؤن من أكياس الدقيق والأرز والسمن والسكر وغيرها، تكدست المؤن في مخازن التجار أيضًا لترتفع الأسعار.

أمّا أنا فخوفي أن أفقد الحب، ألا أجده في أعين من حولي، أخاف أن تقضي الحرب على ما تبقى منه، الحب الذي ملأ يومًا منافذ الطرق وهي تُفتح لاستقبال وطن جديد، أخاف ألا يعود زوجي كما عرفته.

أمّا الخوف المتأصل فينا، فهو الخوف من إظهار الحب والعاطفة، الجميع كان يفكر كيف سنستمر في البقاء؟ وكنت أفكر كيف سيستمر السلام، كيف نحافظ على ما تبقى من روابط، أن نُبقي توهج عواطفنا التي بدأت تذوي تدريجيًا خلال الأحداث المشتعلة عقب تحقيق الوحدة.

طالما كان الحب مصدرًا لأحلامي، يحلّق في عالمي اللامرئي، لأني لم أجده في أمي وأبي، فهما لم يتقنا التعبير عنه. ما كنت أشعر به فقط كان في لمسات أمي المختلطة بالفازلين، حين كانت تبعث الدفء في أجسادنا الصغيرة، في ليالي الشتاء، تلك اللحظات فقط كنت أرى فيها جمال هذا العالم.

كذلك والدي الذي أتخمنا بتعليماته ونصائحه التي ترافق دائمًا صوته العالي، وتجعيدات وجهه، صورة للمواجهة المتكررة للحياة، أو بمعنى آخر الخوف منها، وكأننا سنكون في مأمن لو تعاملنا بتلك الشدة، وكأن إظهار الحب ضعف.

وجاءتنا فريدة يوم أن اجتاح الشمال الجنوب، جاءتنا بحربها الجديدة هي أيضًا مع زوجها. وكأن القدر لم يكتفِ بمأساة كل من جاء من أحداث يناير التي لم يمر عليها ثماني سنوات.

التقطت فريدة أنفاسها واضعة حقيبة ملابسها الصغيرة في الصالة، نهضت أمي للترحيب بها وهي تقول:

– الحمد لله أنك بخير، سمعنا الصاروخ الذي سقط بالقرب من منطقتكم، هل وقع شيء لمنزلكم؟

– الحمد لله ربنا ستر، الصاروخ كان بعيدًا عنا، هناك عروسان انتشلوهما من تحت الأنقاض.

سألتها شوعية:

– نريد أن نسمع الأخبار الحقيقية منك، فزوجك رئيس تحرير.

أجابت فريدة وهي تتربع للجلوس، وتخرج من حقيبة يدها بعض أوراق القات:

– أول الأخبار ارتفاع أسعار القات.

قالت ذلك وهي تمد بعض الأغصان لأمي ولشوعية، وأضافت:

– وأنت يا شوعية زوجك في التوجيه المعنوي، فالأخبار من عندك ستكون أدق.

كان لدى شوعية قليل من الغيرة تجاه فريدة قبل أن تتزوج، فقد كانت تقلق حين تراها تسير في الحارة كاشفة وجهها فيصادفها زوجها، لكنهما اليوم صديقتان مثاليتان.

عقّبت شوعية بما سمعته من زوجها:

– قالوا قد سيطر الجيش على شبوة بالكامل، والسكان يطاردون الانفصاليين.

– وهل تعرفين أن جنودًا عراقيين يساندون صنعاء في حربهم؟ وأن القوات الجنوبية قد أسرت خمسة منهم، واعترفوا أن معهم خبراء عراقيين في إدارة العمليات وتشغيل الصواريخ؟

– ليس بعيدًا، لأن حكومة صنعاء وقفت مع صدّام في حربه مع الكويت.

– الصحيح أن حكومة صنعاء رفضت القرارات الدولية في حق العراق، ولكنها لم تكن مؤيدة للهجوم ضد الكويت، وهذا ما كان يدور في أروقة المجالس الرئاسية حينها.

ظلت فريدة قرابة الشهر عندنا، وهي الفترة التي اشتدت فيها المعارك بين الطرفين، واشتدت أيضًا بينها وبين زوجها حرب لا تختلف عن معارك الميدان، وكشفت أقنعة الكثير عمن تعاملت معهم في المجال الإعلامي، فقد كانت مواقف زوجها الأخيرة المتحيزة لنظام صنعاء سببًا في خلافهما، وبعد أن خصص

صفحات من صحيفته، لفتاوى رجال الدين التي تتهم الجنوبين بالكفر والردة، هاجمته فريدة:

– هل كنا كفارًا برأيك؟ وأنت الذي كنت تخصص في صحيفتك مساحة لمن يكتب من الاشتراكيين والمنفتحين، وكما كنت تقول دائمًا إن الصحافة يجب أن تكون محايدة، فتنقل الصورة كما هي.

–الاشتراكيون انتهوا من زمان، وأنتِ تعرفين هذا جيدًا، ثبِتوا على أفكار قام الروس أنفسهم اليوم بتغييرها، مواكبة مع التغييرات السياسية.

– لكنكم الآن تقدمون مبررًا لسلب الجنوب ونهبه بمواقفكم هذه، وتتحالفون مع الحركات الدينية السياسية التي تسعى لتقويض التحديث وبناء الدولة والديمقراطية، الآن نسيتم هذه الشعارات التي استخدمتموها أثناء تحقيق الوحدة!

أنهت فريدة حديثها مع زوجها دون أن تخبره بأنها ستنهي حياتها معه مع انتهاء هذه الحرب، وحين خرجت من منزلها أخذت حقيبة ملابس صغيرة، وأخبرته أنها ستقضي هذه الفترة عندنا بحجة أن منطقتهم مستهدفة بالصواريخ، وأخذت طفليها خوفًا من أن يصيبهما مكروه.

دخلت أم منال مجلسنا في ذروة نقاش فريدة وشوعية، تدعوهما إلى منزلها لتغيير أجوائهما المتوترة.

ودخلتُ على زوجي وهو منكفئ على صمته واضعًا أمامه لوح الشطرنج، وهو اللوح الذي يصاحبه في أغلب أوقاته منذ الحرب، كان يدير حربه مع نفسه، أمّا أنا فقد كانت حربي تختلف، حرب مع مشاعري، لا أدري أين ستنتهي بي! وهذا الرجل الذي أحببته، يتجزأ أمامي ويتشظى، وأكاد أرى دخانًا يثيره بصمته اللانهائي.

وانتهت حرب صيف 94 دخل بعدها زوجي في حالة نفسية سيئة، لم يَعُد ذلك الشخص الذي عرفته، كان الصراع في الدوائر الحكومية بسبب استبعاد عناصر الحزب الاشتراكي، كتاباته التي أقصته بعيدًا عن الكتلة السياسية المنتصرة، مثل القيود التي فرضتها الأجهزة الأمنية، ومصادرة مقار «الحزب»، واحتجاز أمواله، والتعسف تجاه أعضائه.

– هل تعتقد أن استبعاد قادة الحزب الاشتراكي جاء بطلب منهم أنفسهم، خوفًا من التصفيات الجسدية التي مروا بها في الجنوب، عقب أي خلاف بينهم؟

هكذا سأل زوجي والد منال.

– نعم هذا ما أعتقده، وربما كان خطؤهم عدم تفكيرهم في أن ينتهجوا نهجًا مختلفًا في التعامل مع المتغيرات بعد هذه الحرب، ورؤيتهم القاصرة في فهم موازين القوى السياسية العالمية التي تؤثر في المنطقة.

كنت أجلس مع منال في صالة منزلي حين حضرت مع والدها لزيارتنا، وكان حديثهما يصل إلينا.

– حين حدّثت والدي عن حال زوجك وانعزاله خلال هذه الفترة قرر أن يزوره. قالت منال.

– لقد صنع معروفًا، فهو في حاجة إلى أن يتحدث إليه أحد، ماذا قررتم بعد هذه الحرب؟

– قرر والدي أن يبيع المنزل، وأن يأخذنا للاستقرار في إحدى الدول الأوروبية، لقد كان هذا قرار والدتي منذ زمن ولكنه كان يؤجله ظنًا منه أن الأوضاع ستتحسن.

كان خبر مثل هذا صدمة أخرى لي بعد هذه الأحداث، ستغادر صديقتي الوحيدة إذن سيبيعون المنزل الوحيد الذي كان قِبلتي الخيالية.

لم يكن بالنسبة لي منزلًا لجيران أحببتهم فقط، لكنه كان بمثابة منارة تضيء حارتنا، فقبل أن أتعرف على منال أول مرة بعد أن سكنّا الحارة بسنتين، كنت أراقب منزلهم من فوق سطح منزلنا في الليالي الصيفية، فتأسرني إضاءته، وخطوط الضوء حين تنتشر على رصيفه المقابل، وتلقي بظلال الأشجار على الأرض وكأنها كائنات خرافية تتحرك تحت الجهنمية الممتدة على طول سور حديقته الأمامي، نوافذه البيضاء في الطابق الثاني تنفتح على شرفتين تطلان نحونا، كعينين تنظران بأُلفة لحارتنا الكسلى. كانت الشرفتان تعبيرًا عن وجود يصرح بانتمائه للخارج، وليس للداخل فقط، نصف وجود مفتوح يبقى على اتصال دائم مع ما حوله، منزل ليس كبيوت حارتنا توصد أبوابها المصمتة، بل كان كطائر رابض فوق عشه يوحي بالثقة والأمان.

في بدايات سكننا في هذه الحارة، كان بيتنا يتعرض لمضايقات ليلية، كان والداي يسمعان في بعض الليالي، بعد أن نخلد إلى النوم، حركة خفيفة عند نافذة غرفة نومهما، وصوت سلك حديدي يحاول أحدهم إدخاله من شق النافذة لفتحها، كنا ننتبه عدة مرات حين ينهض والدي مسرعًا ليلحق بالظل الهارب من تحت النافذة.

لقد كانت صلابة بناء منزلنا دعوة لاقتحام غير مرئي، كما هي بقية منازل الحارة.

لهذا كنت أرى أن منزل صديقتي يحمل نوعًا من التناغم والتوازن بين تلك الصلابة والمرونة، فيقف شامخًا أمام الهشاشة، في حين كانت الشرفة الجزء الأنثوي الذي يطل من المنزل على الكون، وكأن إحداهن تطل على إيقاع موسيقي مسائي، شرفة تستضيف حضورًا سماويًا، أو طارئًا يطل من أسفلها يسألها عن الليل.

كنت أرى في بعض الليالي المقمرة خيال رجل وامرأة، يجلسان على كرسيين وأمامهما طاولة عليها كؤوس وأطباق، لم يكونا واضحين، ولكني عرفت فيما بعد أنهما والدا منال، أمّا الشرفة الأخرى المطلة على الجانب الآخر من المنزل فقد كانت خاصة بغرفة أخيها الذي يظل جالسًا فيها ليقرأ في ليالي الصيف.

أمّا منزلنا فلم يكن يطل على عالم الحارة إلا من سطحه، والذي رفعنا سوره بعد فترة ليحجب عنّا تلصص بعض الجيران، كما حدث لحوش منزلنا الصغير أيضًا، الذي أحيط أيضًا بالسواتر لأنه لم يعد صالحًا لجلوسنا نحن النساء.

وكان عليّ أن أقف فوق أي شيء حين أصعد السطح لأتأمل ما حولنا، ومع مرور السنين تخلّينا عن جلوسنا في سطحه بعد أن بنيت حوله الكثير من المنازل التي حجبت عنا أفق الرؤية.

ظل ذلك المنزل يحتل جزءًا مهمًا عندي، وظل سببًا في تقبّلي هذه الحارة، التي أحاول الهروب من واقعها المصمت. ولم نتعرف على ساكنيه إلا بعد أن جاء يوم وشهدت مدرستنا الابتدائية التي انتقلنا إليها في حارتنا هذه تغييرًا في الفصول الدراسية، فكان قرار تخصيص فصول دراسية خاصة بالأولاد، وأخرى خاصة بالبنات، كنا ذلك الوقت في الصف السادس الابتدائي، وكان حظي أن انتقلت منال إلى فصلي الدراسي، وجلست بجانبي، كانت فتاة نحيفة، بيضاء البشرة، ذات ملامح ناعمة وجريئة، تعكس قوة في الشخصية، عيناها متوهجتان دائمًا ومشاكستان، لا تناسبان نعومة تفاصيل وجهها، شعرها البنّي الفاتح دائمًا ما يتحرر من ربطته البيضاء لنعومته، والذي كان يجعلني ناقمة على نوعية شعري المتمسك بضفيرتيه الدائمتين.

رأيت فيها جزءًا مكملًا لشخصيتي الهادئة، والمستكينة.

بدأت بسؤالها لي: هل ممكن أن أبدل مقعدي معك؟ أريد أن أكون بجانب النافذة.

- قلت: أنا أيضًا أريد أن أكون بجانبها.

- حسنًا، ما رأيك أن نتقاسم، أنا أجلس بجانبها في الثلاث حصص الأولى، وأنتِ تجلسين في نهاية الثلاث حصص الأخيرة؟

تمهلت في الرد قليلًا، لكني قبلت اقتراحها، وكان هذا بداية عقد الصداقة بيننا، الشراكة في امتلاك الرؤية إلى الخارج، بل امتدت الشراكة أيضًا إلى قطع الطريق ذهابًا وإيابًا من وإلى المدرسة.

لم تكن تقطع الطريق إلى المنزل معي بسلام، فقد كانت تستمتع بإثارة أي شيء من حولنا، كالغبار مثلًا، أو قذف الأحجار أثناء سيرنا، تقف لتكتشف النباتات والزواحف وتخرجها من مخابئها، فقد كانت المساحة التي نمر عليها بين مدرستنا وحارتنا مساحة شاسعة وممتدة، ويبدو أنها كانت أرضًا زراعية، وكان أغلب الطلاب يمرون بها، وقد شهدت هذه المساحة بعض المعارك الصغيرة بينهم، وخصوصا الأولاد وهم يستعرضون فتوّتهم أمام الفتيات. كان شقيق منال في نهاية المرحلة الثانوية، لكن دوامه الدراسي كان صباحًا، أمّا نحن -تلاميذ المرحلة الابتدائية- فدوامنا يبدأ من الظهيرة وحتى الساعة الخامسة مساءً، كنا نلتقيه أحيانًا في طريقنا، وأحيانًا كنا نجده يلعب كرة القدم في الملعب الذي خططه الأولاد في هذه المساحة، وكانت منال

تصر حينها على البقاء ومشاهدة المباراة لتشجيع فريق أخيها.

ماذا لو لم تكبر بنا الحياة، وظلت مجرد لعبة كرة قدم، وبقي عالمنا المحصور ملكًا لنا، دون أن يتسرب؟ هذه العائلة التي عوّضتني عن أشياء عالمي المُتخيل حين لم أجدها في محيط هذه الحارة أو عند أسرتي، تعلن يأسها من هذا البلد الجاحد للجمال، والرافض للحياة والحب.

هنا في غرفتي أستطيع الهروب من الأعين والرقيب، أنشئ عالمي المختلف ولو لساعات قليلة، هنا أنفذ إلى عالم آخر، أكتشف فيه أني ذات لا تتخفى وراء السواد، أو تلوك الأحاديث المعتادة بين النساء.

هنا وقتي محكوم بتجليات تجاوزت حدود المسلّمات التي تربّينا عليها، كم أنا حرة الآن، أخلق حياة تحلّق في فضاءات تتكون في هذه الغرفة التي لا تتجاوز مساحتها ثلاثة أمتار! فضاء يتكون من انفراجة في النافذة ومساحة ضوء متسلل منها، أو من خلال مكتبتي الصغيرة التي أضع أمامها مزهرية صغيرة لورد قرنفل بلدي.

لم أعرف اشتراطات الوجود الحقيقي للذات حين اكتشف أنها تشغل فراغًا لا يناسبها، لكن هذا الفراغ قد يمتلئ في لحظة ما بعد طول انتظار. كانت الشمس تتدفق على أرضية الغرفة، رذاذ يتصاعد من اختلاط الأشعة بأنفاسي القلقة وأنا أكتب عن تلك المرآة التي رأيت فيها وجهي الحقيقي لأول مرة، مرآة كشفت لي ضوءًا جديدًا توارى طويلًا، لكنه انبثق من زجاجها المتشقق، وجه مُقسَّمة أجزاؤه، شفتاي منفصلتان، وإحدى عيني مموّهة، ونصف وجهي ممتلئ بخدوش المرآة. لا أعرف ما ذنب هذه المرآة لتتحمل غضبنا! حين رآني أمامها أكمل زينتي، وكنت قد أخبرته أني سأقدّم لطلب وظيفة في إحدى الشركات.

عيناه المنعكستان على المرآة وأنا أضع الكحل في عيني التائهتين كعادتهما في الفراغ، أو ربما كان يفكر في أشياء تخصه، لأنه نادرًا ما كان يحدّثني عنها، لكني بادرته برغبتي في العمل، وأنا أعلم أنه لن يوافق.

– ما الذي سيضيفه لك العمل؟ نحن نأكل ونلبس ولا ينقصنا شيء.

– العمل ليس من أجل هذا، أريد أن أكون أنا، أن أعمل ما أحبه، وأن أشعر بأنني على قيد الحياة.

– الحياة الحقيقة هنا في البيت، فلا تظني أنك ستجدين حياة أفضل في الخارج. وهل ترين الاختلاط بالموظفين هنا أمر طبيعي؟ لا..لا أبدًا، أنا من أراهم وأسمعهم، فهم لا يتركون حتى الشريفة والعفيفة، لا بُد من حكايات حولهن، فمستواكِ لن يكون كما تتوقعينه، بل ستكونين أحاديث مجالسهم، أنت لا تعلمين شيئًا.

– لماذا أخاف مما يقولون وأنا على ثقة بنفسي، وأعرف حدود العلاقات بين الزملاء؟ أنا لن أتراجع عن قراري، سنوات عشتها معك لم أكن فيها ما أريد، ولم أشعر بكياني، ما الشيء الذي تغير في حياتنا.. قل لي؟ وما الذي أنجزناه؟!

أنت تذهب إلى عملك كل يوم، وتعود إلى البيت للجلوس أمام التليفزيون ومضغ أوراق القات إلى منتصف الليل، فما الذي أضفته لحياتنا؟ لا اهتمامات مشتركة بيننا سوى تكرار أحاديث ذكرياتك القديمة، أو مشاهدة مسلسل أو فيلم بصمت، ولم يغير هذا النمط الروتيني الذي قتل في داخلي إحساس الحياة، حياتنا

محصورة في مربع هذه الحارة القاتلة، والجيران والأهل، سنوات ونحن نمارس التفاصيل اليومية نفسها، ونقابل الوجوه ذاتها، حتى إني لم أَعُدْ أرى نفسي سوى في أعينهم.

ارتفع صوته واتهمني بالجنون وانعدام المسؤولية.

– أنتِ متخبطة لا تعرفين ماذا تريدين، أنا أحيا مع محاولاتك المتكررة للاستغناء عن الحياة الزوجية التي تتمناها أية امرأة.

– أنت من أكدت ذلك الشعور منذ أول يوم لزواجنا، تحيا معي نهايات العمر، وتخبئ ذلك تحت أقنعة اللامبالاة نحوي، لم تكلّف نفسك يوما أن تفهم ما أريده كامرأة، بل على العكس كنت تثبت لي دائما أني لا أستحق منك أي محاولة لإنقاذ ما بيننا.

– انظري حولك، كل النساء قانعات بحياتهن كيفما كانت، ما الذي ينقصك؟

– قلت لك من الصعب أن تفهم، أنت ترى أنني محظوظة لمجرد أن لدي زوجًا وبيتًا، بغضّ النظر عن حقيقة العلاقة بيننا، هل نجحنا في فهم بعضنا؟ أنا على يقين أنك مدرك تماما أن ارتباطنا بتلك الطريقة كان خطأ، قرارات عائلية سريعة فاشلة منذ البداية!

– أعرف أنك ستنكرين كل ما حاولت أن أفعله لك.

– انظر حولك جيدًا، ما الذي فعلته من أجلي؟

صبّ جام غضبه على كل ما هو موجود في الغرفة، لم يبقَ شيء في مكانه، قبل أن يرمي المرآة بالشمعدان.

وتجسدت سنوات عمري كلها في شروخ المرآة، وربما كنت شرخًا غير مرئي في حياته، تّطلّعاتي، وأحلامي، كانت سببًا في مشكلاتنا، وإن لم أتحدث عنها، ولكنه كان يراها في عيني، أحاول أن أكتفي بالمساحة التي أتاحها لي المجتمع والأسرة، المساحة المكانية المحدودة، لكن ما كنت أشعر به أنه لا يمكن اختصاري في هذه المساحة، بعد أن اختصرت سنوات عمري السابقة، لتصبح مجموعها حياة زوجية قلقة، ومرتبكة.

أمّا الشرخ الذي سببته حرب 94 فلم يكن هينًا، ربما كان ربطًا غير مقصود، لكن حالته النفسية ساءت كثيرًا، فعمله الصحفي تعرّض لتلك التحولات الصعبة، أصبحت الصحافة خطرًا على أصحاب الأقلام المعارضة، أُخذ العديد ممن حاولوا أن يكشفوا وقائع الحرب الحقيقية، وكُشفت عمليات النهب التي قام بها مسؤولون لمؤسسات ومنشآت الجنوب، وسطو قيادات دينية على الأراضي. انهيار سياسي خلّف انهيارًا اجتماعيًا طال العلاقات الأسرية.

كان يجرّني نحو زاويته الضيقة، وإلى نهاياته، يجعل من تجاربه وصفة نهائية لتصبح طريقًا أسير عليه، لتضرب أحلامي في قاع أخطائهم، وعندئذٍ يكون قد تحقق حلمي فقط بمجرد الزواج، ويكفي إذًا أني تزوجته، حتى وإن كان زواجًا تحطم منذ بدايته.

فتجاربه كانت الوصفة النهائية علاجًا لمرض اسمه الطموح، فأصبحت ترسًا من تروس الساعة، يكرر الثواني والساعات، ويدور حول إطار مغلق. تركته ولا تزال ملامح وجهه في شروخ المرآة، تركته وأغلقت على نفسي الغرفة الثانية.

كنت أتمنى أن يترك المنزل، حتى لا يتطور ما حدث بيننا أثناء سورة غضبنا، وما كان يثيرني أنه ملتصق بالبيت، لا أتذكر طوال فترة زواجنا أنه كان يترك المنزل ليقضي وقته بعيدًا عني ولو قليلًا حتى يصبح له عالمه، لم يكن إلا بصورة وهيئة واحدة، كتمثال قديم.

إلى أن قررت أن أغيّر حياتي، أن أنظر أبعد من هذه الأمتار التي نقطعها يوميًا، من بيتي إلى بيت أهلي أو بيت أحد الجيران.

أغلقت على نفسي الغرفة الثانية، أتأمل لون جدرانها الكئيب، وهذه المكتبة القديمة، التي حاولت أن أبعث فيها الروح، وبعض التحف والمجسمات، الكتب والمجلات والدوريات، مكتبة ثقيلة
لا تناسب وضعنا المتنقل في بيوت الإيجار.

كما بدا كل شيء ثقيلًا بعد زواجي، حتى أثاث المنزل، والهواء الذي نتشاركه أثناء جلوسنا معًا، لا أنكر أن حياتي معه كانت تحمل وجهين متناقضين، الطمأنينة والقلق معًا، لا أعرف لماذا؟ ولكنها الطمأنينة المحمّلة بالنهاية.

شعور يتغير بين فترة وأخرى، هو نفسه الرجل الذي اقتحم وجودي وأحببته، ورأيت فيه ما جذبني، ملامح رجولته الطاغية، وكتفيه العريضتين، وأناقته المتعالية، أسرني بحديثه وبنظرات عينيه العميقة، برائحة سجائره الممتزجة بعطره الرجالي والذي ظل ملتصقًا بي لسنين طويلة.

قَبِل والدي عرضه الرسمي بالزواج بي حين جاء في المرة الثانية، بعد زيارتنا لهم في عدن، ورسمت والدتي لي حياة وردية معه، وجاء مُحمّلًا بحقيبة كبيرة من الهدايا كانت معظمها من أجلي، حين رأيت كل ما كان منه، تصور لي أنه من العيب أن أرفض، أو أن أحتج، حتى جارتنا شوعية كانت تتمنى أن يكون من نصيب ابنتها، بل وشجعت والدتي وأصرّت عليها ألا تضيع هذا الارتباط، تحمس أغلب من كان حولي، وحقدت عليه ذلك اليوم، لكني أحببته.

وضعت صينية الشاي والكعك، ورحبت به مرة أخرى، نظر إليّ بعيني صقر، كان يلبس معوزًا، عليه

قميص أزرق كشف عن شعر ذراعيه، هيئته جعلت منه شخصًا مستفزًا، تتمنى أن تجادله وتصارعه، وتحبه أيضًا.

طاف بنا حديثه نحو الشرق البعيد، حيث الثلوج، ربما كانت المرة الأولى التي يخبرني فيها أحد عن بلد من ثلوج عاش فيها سنين دراسته الجامعية، تلك الثلوج التي نراها في الأفلام فقط، وذلك العالم الآخر تجسد في ملامح وجهه، عبارات وأغانٍ روسية يلقيها علينا، كان حديث والدي معه على التجربة الماركسية والشيوعية هناك.

– تعرف أني تركت الجنوب عقب تبنّي النظام السياسي هناك الشيوعية التي كانت ترى أن الدين أفيون الشعوب، وأن التحرر منه واجب؟ وأنتم الشباب الذين ابتعثتم إليها، كيف تعاملتم مع هذه الأفكار؟ هل كنتم ملتزمين بالدين وأداء الطقوس هناك؟

كنت أرى ابتسامة غريبة على وجهه وهو يجيب والدي، وكأنها تحاول أن تغطي حرجًا ما.

– انتقلنا إلى عالم مختلف أبهرنا، ولكنه لم يفصلنا عن بيئتنا، لم نكن نهتم بالطقوس حقًا، ولكنا احتفظنا بمعتقدنا وإيماننا بوجود الله، بغضّ النظر عمّا تلقيناه من أفكار هناك، ما كان يهمنا هو أن نعود بشهادة التخرج. الجانب المهم في الشيوعية أنها كانت تتبنى العدالة الاجتماعية، وتحدّ من تركز الثروة في طبقة معينة، وهذا شيء جيد.

– ما رأيناه في عدن كان جديدًا علينا، لم يكن الخطاب اقتصاديًا فقط، حتى هذا الجانب استخدم بشكل سيئ، لقد جرّد الكثير من أملاكهم، وحوصر رأس المال الحر إلى أن ألغي تمامًا، فلم يَعُد الفرد يتمتع بحرية الملكية، فهو قمع للتنافس والاستثمار.

– أتفق معك في هذا الجانب، كان سوء تطبيق للمنهج، ولكنها تجربة كانت ستؤتي ثمارها إن كتب لها الاستمرار، وقد تصحح الأخطاء إن تركت فرصة للحراك التنويري أن يحقق أهدافه. ولكني أتذكر والدي وهو يشن هجومه على من كان يخوّن ويكفّر من اعتنق الشيوعية، إلى جانب الخطاب المناطقي الذي عزز الفُرقة، لم يكن ليقبلوا أن يرأسهم أحد من المناطق الشمالية.

لأول مرة أستمع لوالدي وهو يخوض في موضوعات سياسية، ولكني لم أفهم حينها موقفه، هل كان هو أيضًا معارضًا للجبهة القومية؟ كان أبي حافظًا للقرآن، ومحافظًا على الصلوات في المسجد، التحق بصفوف المقاومة ضد الاستعمار، وربما تركها لأجل تلك الخلافات. كنت متعاطفة لهذا الاتجاه المحافظ الذي نشأنا عليه، إذ لم أدرك حينها معنى التنوير والحرية.

دائمًا ما تكون البدايات مدهشة، حين لا نعرف من يدخلون حياتنا إلا من خلال العيش معهم، ولا نعرف

أنفسنا أيضًا، فأنا لم أَعُدْ الآن تلك الفتاة نفسها التي أحبّته من أول نظرة، أو أحبّت اختلافه كما ظنت، اختلاف توقعته وكأنه سيحقق أحلامي الصغيرة، لأنه قادم من بلد الأحلام والبحر.

ما نريده وما نحلم به نعكسه على الآخرين، لنفرض عليهم أحلامنا وتصوراتنا، وهذا سبب فشلنا وصدمتنا بهم، هو أيضًا كان في حسبانه أن يتزوج امرأة لا تختلف عن باقي النساء، تركن لرجل يوفر لها لقمتها وكسوتها، ويجعلها أمًا. لا ألومه في ذلكِ، فله الحق في تصوراته ورغباته. لكني لم أستطع أن أكمل الحياة معه بتلك الطريقة، وأن أكون ترسًا في عجلة المأساة والواقع الاجتماعي الراكد المسبب في كل ما يلحق بنا من نكبات.

في تلك الليلة التي كنت أتتبع فيها خطوط الجدران القديمة، وأثاث المنزل الذي بات قطعة من أجسادنا، والساعة التي تعلن بداية اليوم ونهايته بشكل أبدي، قررت أن أخرج من هذه الجدران، ومن هذا الزمن المغلق، من حكايات لا تعبر الماضي وفضاء الحارة، حكايات وزمن اغتال كل من كان نابضًا بالحياة، قررت أن أتركه، وأن أكتب له الرسالة الأخيرة على وجه المرآة المتشققة، أرسم له خطوط مأساتي ورغبتي في إنهاء هذا الموت المتجسد في كل ما حولي، الموت الذي صرناه.

جمعت متعلقاتي الضرورية، وتركت الورقة بحروفها الزرقاء تتحدث بدلًا مني، واخترت مساحة جديدة في منزلنا مرة أخرى، مساحة لا تتجاوز ثلاثة أمتار، أخلقها من جديد، أبعث فيها عالمًا آخر أبتعد فيه عن الجميع.

لم أكن أفكر حينها أني أنتقم لكل شيء، لكل ما حدث لهؤلاء النساء المنكوبات، أنتقم من تلك الحرب التي لم تكن إلا انعكاسًا لفشلنا، وعدم قدرتنا على الحياة، كنت أعيد البحث مرارًا عن أناي، فكيف أجدها في كل هذه المتعلقات المتراكمة للوجود هنا؟!

لم ينته حبّك، بل حاولت كثيرًا أن أبقيه خارج كل ما مرّ بنا، ظل وسيظل هو الإحساس الأول العفوي والجميل الذي استمر ولم يستمر، استمر كبدايات، وظل كأيقونة خارج المعنى.

أجد نفسي الآن في تشييع جنازة الوطن المنكوب بجراحه القديمة، جنازة سبقتها وستلحقها جنائز كثيرة، لا فرق بينها، فهناك من اختار أن يغادر كل هذا إلى الأبد، وهناك من اختار أن يجرّ جنازته إلى بلد آخر، ليبتعد عن كل ما ورثه في هذه الأرض، وينفض عنه ما علق من غبار التاريخ، لعله يعيد لها الحياة. لكن الكثير حمل معه تاريخه المحموم بالمعارك والقتال، معارك ما زالت تشحذ معارك أخرى قد لا تنتهي.

بدأنا نبتعد عن الأجواء الغائمة، كلما توغلنا جنوبًا، وكانت النقاط الأمنية تختلف من منطقة إلى أخرى، وها هي تنتصب أصعبها قبل الدخول إلى (الحبيلين)، كانت حافلات المسافرين متوقفة، أحد عناصر الأمن يرتدي زيًا مدنيًا، يصعد إحدى الحافلات، يغيب دقائق ثم ينزل وخلفه عدد من الركاب، أمر بإنزال حقائب المسافرين وتفتيشها بشكل دقيق. وكان علينا أن ننتظر الحافلة التي تليها ليتم تفتيشها أيضًا. نصف ساعة مرّت إلى أن انتقل الأمن لتفتيش المسافرين فيها.

غاب الأمن هذه المرة فترة أطول وهو يبحث في المسافرين داخل هذه الحافلة، وكانت بعض أصوات الركاب فيها تصلنا وكأنها اشتباك لفظي. خرج منها اثنان بعد أن شدّهما الرجل من أيديهما، وهو يقول:

– صحفيان جاسوسان، خذهما إلى القائد.

دخلا مبنى يقع بالقرب من النقطة، برفقة اثنين آخرين، وغابا طويلًا ونحن لا نزال ننتظر دورنا في التفتيش، وحين تحركت الحافلة دون هذين الصحفيين، قال أخي:

– الله يستر، النقطة هذي لن تتركنا بسهولة.

اقتربنا من نقطة التفتيش، وحين رأى الرجل سيارتنا، توجه نحو زميله ليلحقه وهو يشير بيده إلى لوحة السيارة، حينها اتجه آخر يرتدي زيًا عسكريًا نحو نافذة سيارتنا، وأطل بوجهه الشاحب، وهو يسأل: إيش معاكم؟

ردّ أخي:

– نوصل المرحوم لأهله ليقبروه في عدن.

– أنتم شماليون؟

– أيوه، لكن والدي مواليد عدن.

– والمرحوم؟

– عدني عاش في صنعاء بعد الوحدة.

– افتحوا باب السيارة الخلفي.

نزل أخي لفتحه، فصعد الرجل وكشف عن النعش، وقال: الله يرحمه، وبدأ بالتفتيش تحت الكراسي الخلفية، وسأل: أين حقائبكم؟

ردّ أخي:

– لن تطول إقامتنا في عدن، سنوصله ونعود إلى صنعاء.

نزل المسلح وطلب أن ننتظر حتى يأخذ بيانات المتوفى كاملة، بعد أن طلب شهادة الوفاة، وأخذ بطاقاتنا، ثم غاب في المبنى لفترة، عاد ومعه الوثائق، وأمرنا بمواصلة السير.

نتوقف ولا يتوقف الزمن، ننتظر ولا يمهلنا الوقت، تعدو الدقائق والساعات ونأمل أن تُطوى هذه المسافة، هل كان سيقطعها ذلك اليوم إن علم بأنها ستكون عائقًا لوصوله الأخير؟

ما الفرق إذًا في مسافات الأمس واليوم، لم تتغير لكن نحن من تغير، لم أكن أنا تلك التي قطعتها قبل خمسة وعشرين عامًا، ولم يكن هو كذلك، يتغير المكان بتغير إحساسنا، كانت الأشواق تسبقنا لتطوي المسافات وتأخذنا بجناحيها، طريق قطعناها بلهفة الأطفال، لأهل وأقارب سيستقبلوننا بالأحضان.

واليوم عادت بنا الطريق والمسافة بوجوه تحمل الحزن والموت، وبحب لفظ أنفاسه وعاد جثة. وماذا سيكون بعد هذه الرحلة سوى تاريخ لبكاء قادم؟ الجميع سيبكي، وسيقطع المسافات ليبحث عن قبره أو سجنه خلف قضبان الوطن شمالًا وجنوبًا، وفي أحسن الأحوال سيبحث عن منفاه. ومن لم يمُت بالرصاص، سيشهد غربته في وطنه، وسيصبح الدم ممتزجًا بالذكريات.

أظلمت السماء ونحن نعارك المسافة المتبقية إلى عدن بسبب دمار الإسفلت، وكأن هذه الطريق لم تشهد تعبيدًا من قبل، فقط تحولت لطريق ممتلئة بالحجارة والرمال، ونمت الكثير من الأعشاب على جانبيها، وكانت السيارة تتأرجح بنا فلا أدري لماذا أخذني سكون غريب، لأتخيل صوت أبي بكر سالم، وبصوت خافت ينبعث من جوفي وهو يقول:

غدره على الناس يا شمس الضحية

يا لله اشرقي

بشوف شاطي المحبة لي مرصع

باللول والمرجان

ماذا لو طلبت من أخي تشغيلها من كاسيت السيارة؟ فهو يحب سماعها كثيرًا، لكن الموت لن يسمح لنا

بذلك. ابتسمت بيني وبين نفسي وأنا أتخيل وجه أخي وهو يلقي بشتيمة رنانة إذا وصله شيء من دندنتي للأغنية، أدرك أنه يتمنى في هذه اللحظة أن يستمع لبعض من الأغاني التي يحبها وهو يمضغ القات ليؤجج الشعور بالكيف.

ترتبط لدينا الأشياء ببعضها، فالقات النبتة المهمة في حياتنا مرتبطة بسماع الأغاني. والسفر أيضًا ارتبط بأغاني أبي بكر سالم، وأيوب طارش. علاقاتنا أيضًا ترتبط بفكرة ما، كما هو الزواج يرتبط بفكرة المخلّص عند الفتاة، والشعور بالفحولة لدى معظم الرجال.

بقيت أردد الأغنية في رأسي وأنا أتأمل الجسد المُغطى بالبياض، لماذا لا يسمعنا الموتى؟ أم أنهم موجودون بطريقة ما في ذبذبات هذا الكون؟

أين تذهب ذاكرتهم، وتفاصيل حياتهم التي عاشوها؟ هل تنتقل لمكان ما، أو لشخص آخر؟ لكن جميع من يولدون لا يتذكرون شيئًا، لهذا يسجل البعض يومياته، لتبقى ذاكرته حية.

هل هذا الذي كنتَ تخاف منه؟ ما نمرّ به الآن، وما تقدمه لنا الطريق من كشف حساب لسنوات قضيتها في صنعاء؟ لكنك قطعت المسافة المتبقية لك في لمح البصر، وعلينا نحن أن نكملها، مسافات مليئة بالألغام المزروعة فينا.

خمس وعشرون سنة مضت كلمح البصر ونحن نقطع المسافة المتبقية للدخول إلى عدن، وصلنا نقطة تفتيش العلم، وكان الظلام يلف كل شيء، فقط أضواء خفيفة من مصابيح باهتة في الشارع. وقفنا أمام لجنة أمنية كان أفرادها يرتدون اللباس العسكري، وحين رأوا لوحة السيارة صاح أحدهم في الآخر:

– شوف سيارة من صنعاء، نزّلهم على جنب.

نفخت الهواء الذي كتمته بعصبية، فقد تأخرنا كثيرًا في الوصول، وعلى ما يبدو أننا سنقع في ورطة حقيقية الآن مع هؤلاء، كانت النقطة خليطًا من العساكر، لا يتبعون أمن الدولة فقط.

نزل أخواي من السيارة وهما يهمهمان بشيء لم أسمعه، لكن القلق بدا عليهما واضحًا، وقفا أمام أحد أفراد الأمن، وأنا أتابع حركات يد الرجل المتجهة نحو لوحة السيارة، وكأنه أمسكنا بجرم ما، دقائق وعادا بصحبة الرجل، ليفتحا باب السيارة الخلفي، صعد الرجل، ليتحقق من وجود النعش، فتح الكفن وبدا وجهه أكثر جمودًا بعد هذه الساعات الطويلة.

كان الرجل يمرر كفه على جسده من فوق قماش الكفن، ليتأكد من عدم وجود أي أسلحة أو متفجرات نكون قد خبّأناها بداخله، فقد انتشرت حوادث التفجيرات والسيارات المفخخة في عدن بصورة كبيرة، وأدّت مثل هذه الحوادث إلى اغتيال الكثير من عناصر الحراك الجنوبي.

بدأ الرجل في تفتيش كل أجزاء السيارة، ما اضطره أن يطلب مني النزول من السيارة أيضًا، وأخذ هُوياتنا وشهادة الوفاة، وغاب داخل مبنى النقطة، وأخذ معه أخوَي. مرت دقائق كأنها ساعات، إلى أن خرجا من المبنى وتوقفا أمام أحدهم في هيئة تدل على أنهما متوتران، أنزلت زجاج النافذة لأسمع ما يقولان:

– لن نرجع حتى نوصل المرحوم، فنحن أهله.

– ابقوا هنا حتى يأتي أحد من أهله في عدن ويستلمه، فلا داعي أن تدخلوا عدن، سلّموا لهم الجثمان وتوكلوا.. ارجعوا بلدكم.

بدت ملامح العصبية تظهر على وجه أخي الكبير، بينما كان يهدئه أخي الآخر، وبعد دقائق من المناقشات اتجه رجل آخر من أفراد الأمن صوبهما، وهو يرفع يده اليمنى وكأنه يرحب بهما، لم يكن وجهه واضحًا بالنسبة لي، أخرجت رأسي من النافذة لعلّي أعرف من هو، كان قد بدأ بالسلام الحار مصحوبًا بالأحضان لأخوَي، اتجه معهما نحو السيارة، حينها سمعتهم يتحدثون عن الأهل وأحوالهم، كان الأمر غريبًا، قد يكون أحد أصدقائهما، لكن كيف سيكون لنا معرفة بالأمن هنا؟!

اقترب الرجل من زجاج النافذة، ملامحه ليست غريبة عني، كان مبتسمًا وهو يناولهما أوراقنا الخاصة، ويدعوهما لعزومة غداء بعد انتهاء مهمتنا في اليوم التالي، وهما يردّان عليه: إن شاء الله.

صعدا السيارة وهما يقولان:

- الحمد لله.. هل تعرفين من هذا؟

قلت:

- من؟

- ابن الخالة فريدة.. بكيل.

قلت: معقول! لقد كبر كثيرًا ولم أعرفه، فكيف عرفكما؟

- قابلناه مرة في إحدى زياراته لصنعاء.

بكيل توءم ردفان، بقي مع أمّه فريدة بعد انفصالها، والتحق بالأمن بعد دراسته الجامعية، وهو الآن أحد أفراد شرطة عدن، ولكنه كان في مهمة أمنية لهذه النقطة، وشرح لهم صلة القرابة بيننا، وألا خطر منّا.

- لا بُد أن نقوم بزيارتهم بعد أن نكمل واجب الدفن والعزاء.

وفي هذه اللحظة رأيت نفسي ذلك اليوم وأنا أخترق الميدان حيث محطة الباصات، وأصوات سائقي الباصات تنادي بالمناطق المتجه إليها، إلى أن وصلت إلى أذني (تواهي.. تواهي) فتوجهت سريعًا نحو الصوت، وقبل أن أركب الباص، سألت السائق لأتأكد من وجهته:

- أيوه يا أختي التواهي.. قالها بعصبية.

فريدة هنا، تقضي فترة الإجازة أيضًا، وتقيم في مديرية التواهي، وقد مرّ وقت طويل منذ أن رأيتها، بعد أن عادت لزوجها عقب حرب صيف 94، عادت فقط من أجل ولديها التوءم، ولكنهما لم يعودا كما كانا.

وظلت المشكلات الزوجية ترافق سنواتها التالية، فتجربتها
لا تختلف عن تجارب من جاء من عدن في تلك الفترة، فقد جرّ الجميع رغمًا عنهم، إرث سياسي متوتر، ألقى بظلاله على تلك العلاقات التي قامت عقب اندماج الشطرين، الجميع محمّل بمخلّفاته وإرثه وجيناته، وإن حاولنا أن نتبنّى أفكارًا ونهجًا جديدًا كالعقيدة الشيوعية واليسارية وغيرها، فلا بُد وأن تتحول إلى فكر لا يختلف عن أية عقيدة دينية أخرى، وحدها الشمولية التي تسيطر أخيرًا.

أبهرتني فريدة بشخصيتها التي قضى عليها الزواج مؤقتًا، لكنه أكدها بعد ذلك، وحدها التجارب المتناقضة التي تجعلنا نتوقف لنعيد النظر في كل شيء، وقد نجد طريقة مثالية لخلق علاقات مرنة يمكننا من

خلالها التعايش.

كان الطريق إلى التواهي هذه المرة اكتشافًا آخر لمدينة تحبس أنفاسها لما سيأتي، كل من في الباص كان يتحدث عن غلاء الأسعار، وكان واضحًا صوت ذلك العجوز الجالس في الخلف وهو يتحدث عن قضيته في المحكمة بشأن أرضه التي أخذت منه.

– أقول لك يا أخي كل أراضي المنطقة أخذوها بعد حرب الانفصال، وإلى الآن ونحن نجري في المحاكم لاسترجاعها منهم.

تجيب إحدى النساء:

– عوضك عند الله يا حاج، زوجي ترك لهم الشغل وقعد في البيت، والمرتّب ما عاد يكفي لنصف الشهر.

ظل جميع من في الباص يشكون مما حدث بعد هذه الحرب، ويتحسرون على زمنهم الماضي.

أوقفت الحافلة في الشارع الرئيسي على الكورنيش المطل على البحر، وكان عليّ أن أصعد السلّم الجبلي بعد أن دخلت الحواري بشوارعها الضيقة التي ما زالت تنبض بالحياة، كان مرهقًا ذلك الصعود الذي أتجه معه نحو السماء، ربما المدينة التي تشبهها كما تخيلت حينها هي بيروت المطلة على البحر، كما رأيتها ذات مرة على صفحات مجلة «العربي»، تذكرتي الوحيدة التي سافرت من خلالها لأغلب بلدان العالم.

التواهي كانت قرية صغيرة للصيادين قبل دخول الإنجليز، ويقال إنها سمّيت بهذا الاسم نسبة إلى التيه، حيث كانت ضاحية غير مسكونة، والطرق مقطوعة إليها، ولم يكن ميناؤها موجودًا من قبل، وأعاد لها الإنجليز خارطتها الزمنية حين قاموا ببناء ساعة (بج بن) المطلة على البحر وعلى المدينة من الداخل.

حين وصلتُ إلى منطقة وسطى في الجبل، لاحت لي فريدة من نافذة منزلها، تشير بذراعها، وصلت وأنا ألهث مبللة بالعرق.

فُتِح الباب، واندفعت رائحة الطعام المجهز لاستقبالي، وجهها البشوش، وضحكتها المميزة، وعيناها الزرقاوان، كل ذلك أنعش الجو، ربما اكتسبت زرقة عينيها من عناق البحر لهذا الجبل.

كان أخوها يجلس أمام عتبة المنزل، مطأطئ الرأس بشعر منكوش، غزاه الشيب، لم أعرفه لأول وهلة، فقد خسر نصف وزنه تقريبًا، كان شارد الذهن لا يشعر بأحد أو حتى بحرارة الجو، ألقيت عليه التحية، فرفع رأسه وقال:

– يا أهلا وسهلا.

لكنه لم يعرفني، ونهض ليفسح لي طريق الدخول، ثم عاد إلى مكانه.

استغربت تغيّره الكبير، فقد رأيته حين جاء عندنا قبل سنوات ليشهد زواج أخته، كان لا يزال شابًا نابضًا بالحياة، لا تفارقه الابتسامة وروح النكتة، كان يجمعنا في حوش منزلنا، ليعلّمنا لعب الدومينو بعد أن اشتراها لنخوض حربًا كانت نتائجها أن تتحول وجوهنا إلى ساحة خطوط سوداء من أثر الفحم، كان يقضي الليل بصحبة الأغاني ولعب الورق.

لم يقض عندنا إلا أيامًا قليلة، لكنه أضفى على منزلنا بهجة مستمرة إلى أن غادر. سألتها عن سبب حالته هذه.

– أصيب بحالة نفسية بعد أن سُرِّح من عمله في طيران اليمدا، كغيره من الموظفين ممن كانوا يعملون هنا في الكثير من الشركات والمصانع وغيرها بعد حرب 94، لقد ساء وضع الكثيرين، وتحولت الكفاءات والكوادر المؤهلة إلى قوى فائضة، واكتفوا بمرتباتهم القليلة وهم في المنازل.

دخلت بيتها الذي كان خارجه مختلفًا عن داخله، حين أطل البيت لي من بعيد ببنائه البسيط، ونوافذه الخشبية، أدهشني أثاثه القديم الذي لا يزال محتفظًا ببريقه.

جدرانه مطلية بلون البحر الأزرق الشفاف، تدلت على نوافذه الخشبية ستائر مخملية تنتهي أطرافها بالدانتيلا، الصالون يبدو من الطراز الفيكتوري، مصنوعًا من خشب الزان.

ويبدو أنه من قطع الأثاث التي تم شراؤها في فترة ما بعد خروج الإنجليز. أرضية الصالة تم تغيير بلاطها حديثًا إلى السيراميك، وفرشت عليه قطعة مربّعة من السجاد التركي.

ويوجد في ركن من أركان الصالة دولاب زجاجي يبدو كتحفة فنية، وضعت على رفوفه مجموعة من الأطباق الصيني المنقوشة، وأطقم من الفناجين، ومجموعة من الكؤوس والملاعق المذهبة. الصالة في العُرف العدني هي مظهر أهل البيت، لهذا تحظى باهتمام أكبر.

كان الجو عبقًا، رائحة البحر امتزجت ببقايا روائح الطبخ، وبرودة منعشة من جهاز التكييف جعلتني أطفو كسحابة فوق هذا الجبل.

جرّتني من يدي للجلوس في هذا الصالون الكلاسيكي، قبل أن تغيب في المطبخ لتحضر لي شرابًا باردًا.

قطع أثرية أخذتني لزمن تمنيت أن أشهده، ماذا لو بقي الإنجليز؟! لربما كنا قد وصلنا معهم إلى حياة أفضل، كل شيء يعود بنا إلى زمنهم، كتلك المنارة الشامخة، حارسة السفن، أو تمثال الملكة فيكتوريا الرابض في إحدى حدائقها. ولا تزال ملاح وجوه كبار السن تحتفظ بتعبيرات تلك الفترة كحفريات لا يمحوها الزمن.

كان توءمها يلعبان، فركضا، حين رأياني، إلى الداخل خجلًا، جلسنا نستعيد ذكرياتنا وأخبار حارتنا في صنعاء، وحكت لي بعض مشكلاتها مع زوجها وقرارها في الانفصال عنه.

هو أيضًا أصبح عصبيًا حين عادت إلى عملها في الصحافة، وقت أن كانت الأحداث لا تزال ملتهبة بعد صيف 94، وكان قلقًا من عملها في صحف المعارضة، في الوقت الذي ازدادت فيه وتيرة التخلص من قيادات الحزب الاشتراكي، وتحجيم دوره في الحكومة، وصعود سلطة الإخوان.

– لماذا عدتِ للعمل بعد قرارك تركه من أجل الزواج؟ خاصة في هذه المرحلة الحرجة!؟

– لم يكن قراري ترك العمل هو النهائي، كنت في فترة قلق واضطراب بعد ما حدث هنا في 86، لكن بعد الوحدة فُتحت الساحة للصحف ولحرية الرأي، وكان عليّ أن أعود، وأهتم بما يدور. من الصعب أن أظل متفرجة، كانت مرحلة يجب أن أوثق وأحقق أحداثها، كان الشعب كله ينتظر نتائج الوحدة، ولكنا صُدمنا جميعًا بما حدث في 94، كان شيئًا مؤسفًا.

أخذنا الحديث ونحن نجهز مائدة الطعام، رائحة الصيادية شهية، بحر وسمك وأصوات غربان، أجواء تلتصق بالروح والذاكرة.

– هل سيترك لك الولَدين إن قررتما الانفصال؟

بعد ضحكة ساخرة.

– لا بالطبع، بل يهددني أن يأخذهما، تعرفين أن الحضانة في الشمال للأب.

صمتنا فجأة بعد دخول الولدين.

قضينا القيلولة في هدوء وصمت، وطرحت لها رغبتي في القيام بجولة في التواهي، فهي المرة الثانية فقط التي أزورها بعد زيارتنا الأولى لعدن قبل إعلان الوحدة، فقد كانت زيارة خاطفة لبعض الأقارب.

كان أحد التوءمين لطيفًا واجتماعيًا، والآخر منطويًا ونظراته لي قصيرة وسريعة، أخذناهما في جولة، ونشأت بالتدريج بيننا صداقة تطورت خلال الأيام اللاحقة، بكيل البشوش اقترب مني كثيرًا، بينما ردفان كان يجاري أخاه حتى لا يشعر بالوحدة، كانت تقول:

– إنه نسخة من والده، ودائمًا يشتاق إليه، بينما بكيل مرتبط أكثر بي. وسأعود إلى صنعاء بعد إجازة الصيف على مضض.

– هل تعرفين من يسأل عنك دائما؟

رفعت حاجبيها في تساؤل: من؟

– شوعية هي من تسأل عنك كثيرًا، لقد اعتقدتْ أنكِ لن تعودي إلى صنعاء بعد ما حدث من مشكلات بينك وبين زوجك.

– هذه الحرب كما أفشلت العلاقة السياسية بين الشطرين، أفشلتها أيضًا بين الأُسر.

–مسكينة شوعية، فحزنها انصبّ على صرحها العظيم الذي تشهد احتضاره، فقد أغلقوا أقسامًا كثيرة في مصنع الغزل والنسيج، وأهملوا الأخرى، وسُرِح كثيرون من عماله، في الوقت الذي ألحقت فيه ابنتها خاتمة لتعمل فيه على أمل أن يصدر لها قرار بتعيينها رسميًا.

– لكني أعرف أن خاتمة كانت لا تحب المصنع ولا عمله، اضطرت فقط أن تساير أمها، وتخرج من حصارها بعد أن تخلصت من نكبة زواجها.

وسمعت أن عائلة منال باعت منزلهم وانتقلوا إلى الخارج.. من اشتراه؟

– اشتراه زوج غانية.. هل تتذكرينه؟

– أيوه أكيد، كنت أحضر أحيانًا مجلسها، واعتقدت حينها أنهم جاؤوا بالخلاص والهداية. هذه الحروب لم تأتِ لنا إلا بما هو أسوأ.

– هذا المنزل بالذات كان قلعتي الأخيرة التي انهارت أمامي، أغلقوا شرفات المنزل بعد أن أوسعوا المساحة ليضمّوها ضمن مساحة الغرف وأقفلوها، ورفعوا سور الحديقة فلم تَعُد تمتد أشجاره بظلها إلى الشارع، حتى بوابته الداخلية الخشبية، والمنحوت عليها بعض النقوش والزخارف.. هل تذكرين كم كنا نقف لنتأمله، حتى نجد سرًا لتلك النقوش الغريبة؟ استبدلوا به آخرَ حديديًا يصرف الأنظار لقتامته.

فإن صادف وسِرتُ بجانبه، يتراءى لي المنزل وكأنه كومة من حجارة وأطلال أدوس بقدمي عليها، وعلى عالمي الجميل الذي دُفن تحتها.

– أمّا أنا فقد توقفت عن التفكير في كل ما مرّ بنا، أريد أن أنعزل هنا فوق هذا الجبل، وأربّي ولدي، لكن بعد أن أجد حلًا لمشكلتي مع والدهما، فهو يريد أن يأخذهما مقابل إعطائي ورقة الطلاق.

– وأخوك، هذا المسكين، هل سيظل على هذه الحال؟ لقد أصبح ظل شبح.

– يئس واستسلم، لديه غرفة في الدور الأخير، يجلس فيها معظم وقته مع ذكرياته وصور ابنته، من يوم أن تركته زوجته الروسية وأخذت الطفلة منه، لم تحتمل الوضع هنا.

– من الطبيعي أنها لن تستمر، لماذا لا يلحق بها؟ فهو قد درس أعوامًا في روسيا، ويعرفها جيدًا، قد يجد هناك حياة أفضل من هنا.

– لا يفكر في شيء من هذا، وقد حاولت معه، لكني سأظل معه حتى يخرج من أزمته وأقنعه أن يسافر خلف ابنته.

لم أجرؤ أن أفتح معها موضوع زيارتها لمنزل عائلة نائل، حين حدثتني أخت زوجي عنها، وكيف أنها حاولت أن تعيد علاقتها بالأسرة، لكنها استقبلت ببرود شديد، وحسب وجهة نظر أخته أنها كانت تأمل أن تفتح قناة من التواصل لتعيده إليها، وحين رآها ارتبك وكأن مسًّا أصابه، واتجه نحو الباب ليخرج دون أن يقول شيئًا.

فانتفضت عمتي وقامت من مكانها، وقالت بصوت متهكم: تعال يا نائل سلّم على فريدة، لم تأت إلا للزيارة فقط.. لماذا لم تحضري الأولاد معك لنتعرف عليهم؟

استدار نائل واقفًا في مكانه، ورفع كفه في تحية سريعة تصاحبها ابتسامة مقتضبة وغادر. كان لقاؤها هذا قبل أن أصل مع زوجي إلى عدن بأسبوع تقريبًا، ولم تذكره لي أخت زوجي إلا حين سمعتني أطلب الإذن لزيارتها.

ها هو قدرنا يحملنا هذه المرة بصحبة نعش، وخفق قلبي لتلك الأيام الماضية، مع هذا الرجل المسكون بالصمت الأبدي، كان تشييعًا لقلوبنا وأحلامنا التي تكسّرت ونحن نعبر الطريق فقط، لمواراة خيباتنا المتتالية.

وبدت عدن كامرأة تمر بسن اليأس، متاريس منتشرة تخنق حركة السير، وتقطّع أوصال المدينة، عدن هذه الحورية المستلقية في خوف وترقُّب، وكأن قدَرها أن تُخنق كلما تنفست، وتنطفئ كلما أشرقت.

أغلق سكانها أبوابهم بعد أن كانت تستقبل الشمس طوال النهار، واختفت التِكيات والأسرّة التي تلتقي بالآخرين وأنت جالس أمام منزلك.

صدمت عدن بكمية البشر القادمين من الشمال بعد حرب 94، وتحولت الوحدة إلى شعار مقدس أحل للعابثين أن يجرّدوا الوطن شمالًا وجنوبًا من أحلامه.

أمست عدن بأضواء متعبة لا تصل إلى الشوارع، والتحفَ العابرون انكسارَ ظلالهم وهم يتجهون إلى منازلهم، في حال تغيرت عما كانوا عليه حين كانت الشوارع نابضة، والمقاهي والمطاعم تستقبل زبائنها حتى الصباح.

واليوم تطفو عدن لساعات طوال في الظلام، فتغلق أغلب المحلات والمقاهي أبوابها سريعًا، فكان سوق الطويل عند وصولنا مُقفَرًا، غير عدد قليل من المحلات المنهكة تستقبل أنوار فوانيسها الخافتة دخولنا الحزين.

رفعت رأسي باتجاه النافذة المطلة على الشارع من الدور الثاني لمنزل عائلة زوجي، ورأيت نفسي واقفة أراقب الشارع منها قبيل الفجر، في أول زيارة لي لعدن مع زوجي بعد زواجنا، وكانت بعد حرب 94 بسنة تقريبًا.

الشارع نفسه الذي كان متوهجًا بناسه ومقاهيه المنتشرة، لا ينتهي إلا على الميدان والأسواق المزدحمة، من هذه النافذة كانت الروائح المتدفقة من دكاكين التنبل (أوراق شجر عطرية محشوّة بالتوابل الهندية وجوز الهند) والعربات التي تبيع الفل و(المشموم والكاذي) والفجر يحمل معه لحظاتنا المختصرة في احتساء الشاي بالحليب وأكل الفطائر المُحلاة.

ومع أصوات الغربان، شجن مختلف، ولهفة لاكتشاف هذه المدينة، وكأنها تناديني، أراقب من النافذة حركة الشارع إلى أن يطل وجه الصباح، وتعلو درجة الحرارة لتزاحم هواء الغرفة البارد المنبعث من مكيف الهواء. ما زالت رائحة البخور ملتصقة بالخشب القديم لأثاث الغرفة، وكأنها جزء من ذرات الهواء والخشب

المعتق. هذه هي الزيارة الأولى لمنزلهم بعد زواجنا وبعد صيف 94، كانت المشاعر قد بدأتْ في عدّها التدريجي للهبوط، وكنت أحاول أن أحتفظ بما
لا يزال موجودًا في أركان هذا المنزل العتيق.

شغلنا الغرفة في الطابق العلوي من المنزل، كانت غرفة أخيه نائل، لكنه تركها لنا أثناء إقامتنا خلال فترة الصيف ذاك، غرفة منعزلة كراهبة لا تختلف عن نائل، تطل على حارة (الدوابية)، وهو الحي القديم للهنود الذين كانوا يعملون هنا بمهنة غسيل الملابس. الغرفة بإطلالتها وأثاثها، ورائحتها، أثر تاريخي.

أغلقت زجاج النافذة لاشتداد درجة الحرارة، واتجهت نحو السرير الذي شهد الليلة الفائتة لقاءً سريعًا بيننا، فأعاد لي جو الغرفة الرغبة في أن أشعل في جسده النائم قليلًا من لهب هذه المدينة، فيتحد عرقنا مع هذه الرائحة اللذيذة المنبعثة من حرائق نيران عشاقها، كيف لنا أن نترك أثر حرائقنا نحن أيضًا، وأن نخترع قاموسًا جديدًا لهذه المدينة من ذرات رمال شواطئها؟ بأي طريقة نستولي على غروبها، ونعلّقه كلوحة تشكيلية قبل أن ينطفئ في مياه البحر؟

لكنني أعود لخيبتي الدائمة، وأحوّلها إلى خروج فردي في المساء، أتجول في الأسواق المحيطة بالحي، دون أن أجد من يرافقني.

وأعود امرأة من عصر آخر في أسواق كريتر القديمة، تحترف مهنة التاريخ بأثر رجعي، تاريخ يحيا به الناس هنا دون أن يقرؤوا معالمه على جدران هذه المباني العتيقة، أو أن يتتبعوا خيوط تلك الروائح المنبعثة من دكاكين عطارتها، أو أزقتها الضيقة المختلجة بأصوات تعيد إليّ قليلًا من توازني النفسي، وتنسيني بعض الخيبات التي تصيبني من علاقتي بزوجي. بدأت تدريجيًا أتخلى عن رغبتي في أن يعانقني أو يهمس في أذني بكلمات الحب، مرت السنوات ولم نخرج فيها معًا، ولم أعُدْ أهتم بشيء من ذلك!

ماتت حتى اللحظات التي كانت قبل الزواج، وبدأت أتناسى هذه الأنثى التي تسكنني.

وقفنا أمام المتحف الوطني الذي بُني في عهد السلطان العبدلي، وكان يطلق عليه «قصر البُراق»، لم أشاهده في المرة الأولى التي جئنا فيها إلى عدن بعد الوحدة، لكن هذه المرة انطلقت رغبتي الجديدة أن أنتقل لزمن المدينة البعيد، وقررت هذه المرة أن أزور المتاحف والمواقع الأثرية، تلك التي لم يدعني أحد لزيارتها، وهكذا أخرجُ من خيبتي التي أشعر بها وأنا بالقرب من زوجي وبين أهله الذين لم أجدهم هذه المرة كما عهدتهم حين استقبلونا عقب تحقيق الوحدة، لقد ثقلت ملامحهم، وظهرت تعبيراتهم المتهكمة نحو كل ما هو شمالي، ويبدو أني أصبحت إرثًا ثقيلًا.

أكملت جولتي في السوق الممتلئة بالبضائع الآتية من البحر، افتُتِحت الكثير من الفنادق والشركات

والمحلات التجارية، وامتلأت السواحل من مختلف أرجاء البلاد.

حين عدت كان الغضب يملأ وجهه، لأني تركته نائمًا وخرجت دون علمه، واشتعلتُ أنا أيضًا، وارتفع صوتي في حضور عمتي التي كانت تلوذ بالصمت بطريقة مستفزة، ودون أن تدافع عني أو تقف في صفي.

– ماذا تريد مني أن أفعل؟ طوال اليوم وأنا مسجونة في هذا المنزل، ومنذ أن وصلنا قبل أسبوع، لم يقدم أحد منكم تنازلًا عن وقته ليصحبني إلى أي مكان!

– هذا ليس مبررًا أن تخرجي من غير إذن.

– أخبرتك أني سأتجول في السوق، ولم أذهب بعيدًا.

– تخبرينني وأنا نائم؟ يا سلام!

دخلت أخته، وهي ترفع النقاب عن وجهها من باب المنزل، وهي تقول:

– صلّوا على النبي يا جماعة.. أصواتكم للشارع!

تبعها زوجها وهو يقول:

– حصل خير، لا مشكلة، الأسواق أمان والدنيا سلامات.

أضافت أخته:

– المرة القادمة سأخرج أنا وأنت، لا تخرجي وحدك، ويجب أن تستأذني من زوجك.

نظرت لها بحزن لا يعلم به أحد، ليس حزنًا فقط، لكنه غضب، هل هذه التي ترتدي هذا السواد ميرفت؟ هل هي تلك التي نزلت ذات يوم من سلّم الطائرة كنجمات السينما، آتية من القاهرة؟ كيف انقلبت خلال أربع سنوات فقط إلى هذه المرأة؟! لم يكن ما تغيّر منها الشكل فقط، بل كانت طريقتها في الحديث والمعاملة، وكأنها إمام أو داعية ديني!

لقد بدأت أكره كل هذا السواد الذي أحاول أن أكسره في الوقت الضائع، فلماذا إذًا يتنكرون للشماليين، وفي الآن نفسه ينقلب أغلب المجتمع العدني إلى كائنات متطرفة ومتباعدة فيما بينها؟ ألم تكن هذه في يوم ما معجبة بسندريلا الشاشة العربية؟! واليوم تقول عنها الله يغفر لها، لو أنها تابت إلى الله ما كانت انتحرت؟!

ميرفت الجميلة، أخت زوجي وأخت نائل، كانت همزة الوصل بيننا، وكانت السبب الرئيسي الذي قرّبني إلى أخيها، كنت أطلق عليها أميرة الحب، وما زالت إلى اليوم تلك المُحِبة للجميع، وإنما بطريقتها الجديدة التي خلعت عليها بُعدًا دينيًا، حتى علاقتها بزوجها كمال قد تغيرت، أصبحت تحبه في الله، وتطيعه دون أن تناقشه، وما يقلقها فقط هو عدم إنجابهما إلى الآن، ولكنها أسرّت لي يومًا أنها تشك أنه على علاقة بأخرى،

ولكنها تريد أن تتأكد إن كانت شرعية أم لا.

- وهل تظنين أن كمال كذلك؟

- لم لا؟ الرجال لا يردعهم شيء، ولهم مبرراتهم، وكمال لديه مبرر قوي.

- لكن لا عيب يمنعكما من الإنجاب، هي مسألة وقت فقط.

- ليس الإنجاب فقط، أعتقد أنه يحب أخرى، ليست هنا المشكلة.

- أين المشكلة في رأيك؟

- في العلاقة المحرمة.. أستغفر الله.. لا مانع عندي إن تزوج في الحلال، فهذا حقه شرعًا، لكن لا يعاشرني مع أخرى يعاشرها في الحرام.

- هل أنتِ مجنونة يا ميرفت؟ هل حقًا لا مشكلة لديك في زواجه؟!

- لا أبدًا، من حقه أن ينجب، أمّا أنا فيكفي رضى الله عني.

وقطع أخي مرة أخرى ذكرياتي وأعادني بسؤاله إلى شوارع كريتر حين بدا أنه غير متأكد من المدخل الخلفي لمنزل العائلة، فقد كان علينا أن ندور من خلف حي الدوابية، حتى نوقف السيارة أمام الباب مباشرة ليسهل نقل النعش. نظرت في تليفوني إلى الساعة وقد تجاوزت الثانية عشرة صباحًا، كنا منهكين تمامًا، وكانت قد تيبست قدماي من الجلوس، مسافة قطعتها برفقة كل تلك السنين. وبعد عدة دورات في الشوارع المحيطة للحارة اهتدينا بعد سؤال أحدهم، وها نحن أولاء نصل أخيرًا.

نزلت من السيارة وقد تجمهر أمامها عدد من الجيران والأهل، وعلت الأصوات المنتحبة من داخل المنزل، وردّد من حملوا النعش أدعيتهم.. لا إله إلا الله.. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ما زال شابًا على الموت.. الأعمار بيد الله.. الموت لا يعرف صغيرًا ولا كبيرًا.

عبرت من خلالهم ودخلت المنزل، كانت النساء ينتحبن في الداخل، وظهرت عمتي، وخلفها بناتها، وباقي فتيات العائلة ونساؤها، وبعض الجارات ممن كنت أعرفهن، واتجهن إلى الصالة الكبيرة لمدخل المنزل، كُنَّ ممسكات بذراع عمتي حتى لا تسقط، وببطء توجهت للنعش وهي تنشج وتردد اسمه، فتحت جزء الكفن العلوي بكفين مرتعشتين، وحضنت وجهه الجامد، وطبعت عليه قُبلة، ولحقتها بقية من كُنَّ حولها.

دخلت الصالة الداخلية ولم يأبه لوجودي أحد، جلست على أحد الكراسي وأنا أعاني من تيبس مفاصلي، لقد تغير أثاث المنزل ولون طلاء جدرانه، وشكل الستائر. وجالت رائحة أجساد لجيل جديد لم يشهد معاركنا السابقة، لكنه يضفي نوعًا من المواقف غير المعلنة، فأنا بالنسبة لهم ماضٍ انتهى بمجرد انتهاء

ارتباطي الرسمي بزوجي، لكن ما بقي بالنسبة لهم خيط القرابة الذي أصبح متوترًا، ولست الآن سوى اسم كان ذات يوم مضافًا في قائمة أفراد هذه العائلة كزوجة عم أو خال، لهذا أرى في تعبيرات وجوه فتيات العائلة من الجيل الصغير نوعًا من الارتباك، تقدمت إحداهن فقط نحوي وفي عينيها أثر الدموع، ومدت خدها للسلام وهي تقول: عظّم الله أجرك يا عمة.

أما الأُخريات فجلسن على الأرض في صمت بملامح خالية من أي تعبير.

وحلّت الكراسي المودرن محلَّ المرتبة التي كنا نجلس عليها أنا وهو، واختفت التماثيل الصغيرة التي كانت تزيّن رفوف النيش، ربما لأنها أصبحت في قائمة المحرّمات فيما بعد، فلم يَعُد يوجد سوى أطقم لأطباق وفناجين، وكؤوس ملونة.

لكن رائحة الجدران القديمة لا تزال تقاوم هذه التغييرات، أم أنها لا تزال تحتلّ ذاكرتي لتُبقي على تلك اللقاءات العائلية حول طاولة البليارد، تذكرني بمحاولاتي الأولى لتعلّم هذه اللعبة، بالنسبة لي لم يكن تعلم البليارد من أجل اللعب والمتعة، بل كان إثبات وجود جديد لي، وكانت مشكلتي هي عدم تقديري للمسافة بين القطعة والثقب، كانت المسافات بين القطع على تلك الرقعة تشكل لي مسافة علاقتي بأفراد هذه العائلة، بل المسافة الزمنية التي كانت بيني وبينه، كيف عليّ حينها أن أقدّرها؟

لقد تسلل الموت تدريجيًا حين انتهت تلك اللقاءات، ولم يكن يجمعنا سوى مناسبة العيد فقط، كطقس سنوي.

موت الحياة يسبق موت الأجساد، فلماذا لا نحزن لذلك البُعد الذي اخترناه قبل أن نرحل نهائيًا عن الحياة، وهل حقًا نحزن فقط حين يموت أحدنا؟ أيشعرون اليوم بالحزن لموته؟

الموت هو أن يبتعد عنك من تحبهم، وإن كانوا معك تحت سقف واحد، وهو ما يحدث حين تتجمد المشاعر والرغبة، والاهتمامات المشتركة، حين يصبح اليوم كسابقه، مكررًا دون أي تغيير، وهذا ما جعلنا أنا وهو نختار البُعد، لكنه اليوم غادرها دون أن يختار! أم أنه خيار متعجل.

لماذا إذًا يبكون الآن؟

عائلة زوجي مجتمعون في الصالة حول النعش، كبارهم وصغارهم، وأنا أشعر بألم ممتزج بذكريات وحنين تفجّره زوايا هذا البيت.

تدخل إحدى نساء العائلة، ويبدو أنها الوحيدة التي لاحظت تعبي وإرهاقي، كانت طرحة رأسي قد بدأت في الانحسار عن شعري حين أسندت رأسي إلى الجدار، توجهت إليّ لتحتضنني وتعزّيني، وتعدّل من وضعية طرحتي لتخفي تحتها جيدًا خصلات شعري الظاهرة، واتجهت نحو المطبخ بعد أن سألتني عمّا

أشرب، وإن كنت جائعة أم لا.

فصّرحت لها بجوعي وعطشي، كانت فتيات العائلة قد توافدن حيث أجلس، لقد كبرن وتغيرت ملامحهن، كل من جاءت لتسلّم عليّ أهمس باسمها لأتأكد أنني لم أخطئ، كُنَّ متوترات ويحاولن التعبير عن حزنهن بطريقة مناسبة، وباختيار الكلمات التي يجب أن تقال لي وقتها.

جاء الشاي ورغيف من الجبن، التهمته وشعرت بالنعاس، وحاولت أن أبقى متيقظة، كانت إحداهن تواسيني، وكأني ما زلت زوجته وتهمس بطريقة تشي بالحزن: ليته ترك ولدًا يخلّد اسمه، أو يذكّرنا به. ردّت إحدى أخواته بعينين جامدتين مصوبتين نحوي، سيظل بيننا ولن ننساه، ولن نحتاج لأحد ليذكّرنا به.

كنت لا أرغب في التعليق أو في مشاركتهن، فالموقف لا يحتمل، ولست في حالة تؤهلني لخوض أي حديث. كل الوجوه تعكس مشاعر مزيفة، لا أحد يشعر بحزن حقيقي، فكل هذه السنوات كشفت لي زيف العلاقات حتى بين الأسرة الواحدة، وبقي سؤالي الأبدي، ما هو الحب؟

لقد كان الحب هو ما كنت أحتاجه قبل سنوات، وشعرت به في هذا المنزل حين ضمّنا جميعًا، وهو ما شيّدناه على غفلة من حقيقتنا التاريخية التي لم تهز جدران هذا المنزل فقط، بل أصابته بشروخ امتدت في البلد بأكمله. لكن لماذا أشعر به إلى الآن رغمًا عن كل شيء؟ أشعر به هنا يتنفس في جدرانه رغمًا عن شروخها، في هذه البقعة التي جلسنا فيها كثيرًا.

ذلك المساء كنت متكئًا على الكنبة الطويلة، وبجانبك والدي، وجلسنا أنا ووالدتي فوق مخدات على الأرض، نتابع فيلمًا قديمًا، وحين يحدث أن تصادف عيناك نظرة خاطفة مني نحو وجهك، تسري في جسدي رجفة خوف لذيذ ما زلتُ سجينتها حتى الآن.

أحاول اليوم أن أفسّر هذا الشوق وهذا الحب وتلك اللمعة في عينيك، والتي لن يطفئها رحيلك اليوم، فهذا الحب هو عالمي الذي نشأ في خيالي وجعلتك جزءًا منه؟ أحببت هذه العائلة لأنها كانت جزءًا مني بل جزءًا آخرَ مختلفًا.

كل العائلة اجتمعت اليوم لوداع الجثمان، حضور جسدي
لا يختلف عن لقاءاتهم في المناسبات.

هل هو اختلاف في الإحساس تجاه الأشياء؟ هل هو الحزن؟ لكنه ليس كما ينبغي، فكيف يكون الحزن إذًا؟ هل هو إحساس كما هو الحب لا صيغة له؟

الزمن كفيل بكشف تفاصيلنا التي لم نكن نعرفها، وحين نصاب بالملل، يكون أساسه مللًا من أنفسنا، فنتحول إلى مجرد وجود مفروض لا متعة فيه.

حين دخل إخوتي للسلام على عمتي، غطّت فتيات العائلة وجوههن، وانسحب بعضهن إلى الغرفة الداخلية، أحداث ربع قرن كافية لأن ننسى قرابتنا؟!

لا يزال النعش مُوسَّدًا في الصالة، ونقاش يدور حول موعد دفنه، البعض يرى أن يدفن في هذه الساعة، فقد مرّ على وفاته قرابة اليوم، وقد يؤثر ذلك على الجسد، والبعض يرى أن يدفن بعد صلاة الفجر على ضوء النهار.

وقف نائل بقامته المتوسطة الممتلئة، كان يرتدي ثوبًا أبيض يبرز منه كرشه، واختلط احمرار عينيه بالكحل الذي يحرص على وضعه مقتديًا بالسُنّة، حتى صبغ لحيته وشعر رأسه بالحنّاء أسبوعيًا.

وقف بعد أن أكمل قراءة يس، ليشدد على أنه يجب أن يقبر في الحال، ورفضت أخواته أن يدفن في الظلام، لكنه كان مُصرًّا بعد أن تلا حديثًا نبويًا يفيد بأن «إكرام الميت دفنه»، أمّا الرجال فلم يكن لديهم مانع في إقامة صلاة الجنازة سريعًا ثم دفنه.

صاحت الأخوات بصوت واحد بأنهن لن يسمحن بدفنه في الليل، فلم يبقَ على الفجر سوى ساعات قليلة، اندفعت الأخت الكبرى قائلة:

– هل تتذكرن الحوادث التي حدثت في مقبرة العيدروس؟ الجثث اختفت بعد نبش قبور أصحابها، لأنهم دفنوا في الليل.

أيدت كلامها إحدى الجارات حين عقّبت بذكر حادثة الفتاة التي اختفت من قبرها في منطقة القطيع، لأن أهلها قاموا بدفنها في الليل.

قاطعها نائل بقوله:

– كلها خرافات وبِدع، أتذكر أن زوج الفتاة فقد عقله بعد أن ماتت، وهو من نبش قبرها وأخرجها، وبعد

فترة وجدوها في منزله بجانبها، بعد أن فاحت رائحة جسدها من المنزل، جاءت الشرطة بعد أن أبلغ الجيران عنه، وأخذوه إلى مستشفى الأمراض العقلية.

قالت ميرفت وقد تحشرج صوتها من كثرة البكاء:

– كيف تستطيع أن تقبر أخانا في الليل؟ والله ما عندك قلب، اترك تديّنك اليوم جانبا.

وفجأة ساد الصمت عند دخول فريدة، بعباءة سوداء وطرحة بالكاد تلامس فروة رأسها، وكان واضحًا أثر الدموع من انتفاخ جفنيها. تجمدت ملامح نائل حين رآها تنتقل بين أفراد الأسرة لتقديم واجب العزاء، وحين جاء دوري عانقتني بقوة، وتحشرج صوتها وهي تقول: «أول ما اتصل (بكيل) يبلغني بوصولكم، نزلت سريعًا قبل أن تدفنوه، خير ماذا حدث له؟»

أجبت وأنا أمسك بكفّها لأجلس بقربها:

– جلطة.

– هل كان عنده القلب؟

– لا.. أبدًا.

– إنا لله وإنا إليه راجعون، الله يصبر الجميع.

كان عناقها لعمتي مصحوبًا بالبكاء، بينما لم تنبس عمتي بكلمة واحدة، وشعرت بارتباك نظرات من كان موجودًا حين مدّت كفّها لتصافح من كان حبيبها يومًا، مدّ كفّه دون أن ينظر إليها، وهو يقول:

– سعيكم مشكور.

كان صوته قادمًا من بئر عميقة.

هذا الموت قديم، موجود قبل وجودنا، نصنعه مرارًا خلال مراحل حياتنا حين نفارق من نحب، وحين تتعثر أحلامنا، بل نموت حين نقتل مشاعرنا، ونحيطها بأسوار عديدة.

كانت نظرات فريدة تحمل أسىً مضاعفًا، وهي ترى رجلًا غريبًا كان يومًا ما شعلة متقدة بأفكاره وإيمانه بها كامرأة ترافقه لحياة جديدة، خاضا معًا منعطفًا تاريخيًا، وواجها رفض أسرته لِما كانا يقومان به، وما كان يحدث من تغيير، فماذا تعني الحرية حين أصبحا فردين غير مرغوب بهما، وباتا يصارعان هُويتهما القديمة والجديدة، في الوقت الذي بدأت علاقته بالحزب وبفريدة تتوتر إثر تقلبات السياسة، فطلب منها أن يكتفيا بعملهما الصحفي ويخرجا من الدائرة السياسية.

– لماذا نؤمن بكل مبادئ الشيوعية؟ فلنأخذ منها ما يناسبنا، فالمجتمع لن يقبل هذا التحوّل الجذري،

ستنشأ الكثير من الانقسامات. وهذا ما يحدث الآن بالفعل.

– وكيف يسود الفكر التقدمي، أو كيف نجني ثمار عقيدة جديدة دون تضحيات في رأيك؟ لماذا نظل كما نحن، وكما يريد أهلنا وآباؤنا؟ يجب أن نقف مع التغيير، لا أن ننسحب.

– ألا ترين هذه الخلافات التي تجاوزت الحد إلى كل هذه التصفيات بين الرفقاء أنفسهم الذين ينادون بالتغيير؟ الجميع يبحث عن مصلحته تحت شعارات كاذبة.

– لست معك يا نائل، وما جمعنا سيفرقنا، وأنا أرى منك هذا التراجع والاستسلام، أنت لا تحمل همًا سوى أسرتك الرافضة لي من الأساس، لأني حسب قولهم من يجرّك إلى الكفر.

– لا تحمّلي أسرتي سبب مشكلاتنا، أنت لا تريدين التنازل، ولو مبدئيا، عن آرائك وطلباتك.

عادت فريدة مرة أخرى إلى عدن بعد أن خاضت تجربة أخرى مغايرة عن عقيدتها التي آمنت بها، لكنها ظلت في أعماقها. وحين عادت إلى العمل الصحفي بعد انفصالها، كانت تتبنّى رؤيتها النقدية الخاصة لكل ما حدث جنوبًا وشمالًا، وأسست لها منبرًا إعلاميًا خاصًا.

وكما قالت: الحياة محطات نمر بها إلى أن نصل إلى محطتنا التي نقتنع بها، والحب لا ينفصل عنها، فهو إحدى عجلات القطار الذي نصعده ليعبر معنا المشوار، ومحطة نائل التي وصل إليها عبارة عن سور صلب بناه فوق أسوار العائلة، وامتد تأثيره إلى جيل كامل أتى بعده.

حين كانت تواسيه في رحيل أخيه، كان يهز رأسه متحاشيًا النظر في عينيها، ولم يعطها الفرصة لإطالة الحديث معه، وهو يراقب أفراد عائلته وإعراضهم عنها، وكأن الخلاف القديم جاثم بثقله إلى الآن، وامتد ليشمل الجيل الجديد من أولاد العائلة، فلم يتوقع أحد منهم أن نائل الذي غاص في حياة الرهبنة، قد يكون له صلة بهذه المرأة التي تختلف عنه تمامًا.

نهضت من مكانها رافعة طرف عباءتها، ودنت قليلًا من منكبيه، وكأنها تهمس له بشيء، بنظرة توسل ممزوجة بغنج، وفي جزء من الثانية، عادت إلى وجهه سنوات الشباب، فرفع رأسه فاردًا ابتسامة متحفظة، خاف أن تكسر ذلك السور.

هل يظل الحب رغمًا عما يعتريه من انتكاسات؟ ربما يخمد كالبركان ويعود لينفجر مرة أخرى، وقد يكون في حالة غيبوبة فيأتي من ينعشه ليعود نابضًا بالحياة. هكذا تهيأ لي ساعة أن رأيت تعبيرات ملامحهما.

نهض وراءها، وهي تجر قدميها بدلال، وكل من كان في الغرفة يتابعهما بدهشة، لم ترَ عمتي ما حدث، فقد كانت مستلقية فوق إحدى كنبات الصالة تغطي وجهها بطرحتها، وكأنها تخبئ ما لا تريد أن ينكشف

للآخرين.

هل كانت حقًا حزينة على ابنها المتوفى، والذي ما زال جسده منتظرًا في الصالة ليغادر هذا التجمع الطارئ؟

دخلا المطبخ الملاصق للصالة الداخلية، حيث كان هو المكان الوحيد الشاغر في البيت، وكان خيالها يظهر من خلال ستارة باب المطبخ الزجاجي، وأعتقد أنها كانت تريد أن تتحدث معه في شأن الدفن، لأنها تفضّل دفنه في النهار، وكان نائل المعترض الوحيد في العائلة لتأخير موعد دفنه، لكن يبدو أن فريدة قد بدأت في التأثير عليه.

ما زالا واقفين في المطبخ، وكل من كان يفتح بابه يعود ويغلقه، ويبدو أنه المسرح الذي تشتعل فيه المشاعر.

فلقد كان لي ولزوجي لقاء فيه، في زيارتي الأولى أنا وعائلتي عقب إعلان الوحدة لعدن، لحظة أن أوقفني ليعيد عليّ السؤال الذي ظل معلقًا دون إجابة: هل تحبينني؟ وبعد أن قاطعنا جرس الباب معلنًا حضور والدتي، فقد كان هروبي من الإجابة ساعتها رفضًا لتواطؤ والدتي معه، والاتفاق الضمني بينهما لخلق تلك اللحظة الفاصلة بيننا.

تعلم أمي أني لم أكن مستعدة لقبول ذلك التحوّل في حياتي دون أن يكون لي وقت كافٍ للتفكير، كنت أظن أني سأبقى تلك التي تشتعل النيران حولها دون أن يتغير شيء في حياتها، أو دون أن تتقدم خطوة لحياة لا تعلم أنها ستصبح ذات يوم رصيدًا تاريخيًا مُحمّلًا بالمأساة.

لم يكن الحب بالنسبة لي ارتباطًا عمليًا، كنت أريد أن أعيش مرحلة كافية منه، دون أن أعلُق بحياة شخص آخر لمجرد أنه يحبني.

تركته والكلمة عالقة في جوفي، أخاف من تبعاتها، ومن تلك الملامح الجادة التي ستحاصرني بعقد أبدي. كانت مشاعري نحوه تهزني كأرجوحة في يوم عاصف، جاء صوت الجرس منقذًا لموقفي.

ربما لو أدركت أمي أنها بمجيئها تلك اللحظة قد أيقظتني من حلم غصت فيه مع بريق عينيه، وهو يقولها مثبتًا كفّيه فوق ذراعي، ومركّزًا بصره في عيني: خذي وقتك.

وظلت الكلمة عالقة إلى أن التقيته هنا، بين روائح هذه المدينة، رائحة البحر والبخور.. وبينهما وعد بلقاء.

أعاد لي الآن لقاء نائل وفريدة ذكراه المعمّدة بالمكان، بعد ظهيرة يومنا الثاني من وصولنا عدن، كنت مطمئنة بأنه لم يكن موجودًا في بيت العائلة، في تلك الفترة كنت في صراع بين مشاعر لم أصل إلى حقيقتها، وعرضه الحاسم، كان خوفي من التلاشي الذي كنت أشعر به في وجوده، فكيف إن ربطَنا عقدُ زواج؟!

اتجهت وقتها إلى المطبخ، وكان المنزل ساكنًا، فأغلب من
لا عمل له يظل نائمًا حتى الساعة الثانية بعد الظهر، وهذا الصيف الحار جعل نومي قلِقًا. لمّا صحوت جائعة اتجهت إلى المطبخ، وفتحت الثلاجة وأخرجت بعض الجبن والبيض، وفي اللحظة التي بدأت فيها بصنع فطيرة من البيض والجبن، فُتح باب المطبخ، ووقف أمامي صامتًا وبين شفتيه ابتسامة غائمة، وعيناه كالجمر وكأنه لم ينم. شعره مبلل، وقميصه ملتصق بصدره العريض. وقفت مرتبكة، فازدادت شفتاه اتساعًا لتتضح ابتسامته، وهو يقول: صباح الخير، أعتذر أني لم أستقبلكم يوم أمس، كنت مشغولًا.

قلت:

– عادي، ما في مشكلة، العائلة قامت بالواجب.

– ممكن آخذ معك فطيرة.

– أيوه، لا حاجة لاستئذان.

– تسلمي.

جلس وسكبت له كوبًا من الشاي.

بدأنا نأكل مع صوت المروحة فوقنا، تشنجت عضلات جسدي، وهو ينظر إليّ بنوع من الترقُّب، لاحظ توتري، فأرخى نظراته وابتسم قائلًا:

– لا تقلقي، لن أكرر طلبي، لأني أعرف بأنك لست مستعدة للارتباط بهذه السرعة، لكن تأكدي أني أحبك كثيرا، استمتعي بزيارتك لعدن وانْسَي كل شيء.

لم أستطع الرد، ولكني كنت أريد أن أقول له أنا أيضًا أحبك، لكني قلت دون أن أنظر لوجهه، متصنعة ابتسامة عريضة:

– الجو حار جدًا، ويصعب الخروج في النهار، ضحك وقال:

– الخروج هنا صعب بالنهار. السواحل جميلة تحت أضواء الليل.

نهضتُ واتجهتُ نحو الحوض لأغسل طبقي وكوب الشاي، نهض خلفي وأدارني نحوه وعانقني بشدة. رائحته تسللت إلى خلايا مخي، حلّقت بي وأنا شاردة في هذه اللحظة التي تتكرر أمامي الآن.

عناق بين زمنين مختلفين، وكأنها زمن واحد لا يفصلهما سوى باب المطبخ الزجاجي، فاصل شفاف ألغى حدث الموت، وأعاد اللحظة الماضية متجسدة في الحاضر. عناق نائل لفريدة حقق معنى الزمن الواحد، زمن اللحظة التي لا تنتهي.

قال لها:

– أنتِ هربتِ ونسيتِ كل شيء كان بيننا في لحظة، لم تكلّفي نفسك حتى إخباري أنك ستغادرين عدن!

– ماذا كنت تريدني أن أفعل وسط تلك الفوضى؟ كان بيتنا معرّضا للهجوم في أي وقت، والدتي أحد مناصري رئيس الحزب، ومن أقاربه، وأنت تعرف أن التصفيات كانت تتم حسب الانتماءات والهُوية، إضافة إلى أنني صحفية، وتعلم أيضا أن علاقتنا كانت شبه منتهية، لا شك أنك تعرف الأسباب، فتردّدك ووقوفك في المنتصف دون أن تتخذ موقفًا حازمًا في قراراتك هو ما اضطرني إلى الرحيل.

– تعرفين أن أسرتي كانت تشكِّل ضغطًا كبيرًا بالنسبة لي،
ولا أريد أن أغضب أمي، فأغلبهم لا يرون في أفكار الشيوعية سوى كفر وإلحاد.

– وأنت أيضا كنت تراها كذلك، والدليل ما أنت عليه الآن، انظر إلى نفسك كيف أصبحت!

– وأنت ماذا فعلتِ؟ تزوجت رجلًا أخضعك لقوانينه، وتركت الصحافة لفترة طويلة، رجلًا مختلفًا عنك تمامًا، فكرًا وثقافة وبيئة.

– صحوتُ وعدتُ إلى حياتي، وإن كانت الأوضاع السياسية قد تغيرت، ولم يَعُد للاشتراكية وجود، لكني رفضت الخنوع لمعتقده وأفكاره.

– وهل ستظلين تهربين؟ وإلى متى؟ أنت نفسك لم تثبتي على حال.

– ومن منا يستطيع أن يثبت على حال واحدة؟ لسنا ملائكة يا نائل، لكن ما أنت فيه هو انتحار وليس حياة.

كنت أستمع إليهما بصعوبة، فصوت المقرئ كان يغطي على حديثهما.

خرج نائل متجهًا نحو الصالة وقد استرخت ملامحه، وكان
لا يزال بعض أهالي الحي والأقارب منتظرين أن يتفق الجميع ليأخذوا النعش إلى المسجد للصلاة عليه، ثم تشييعه للمقبرة. فقال:

– يا جماعة سننتظر صلاة الفجر لنصلّي عليه وندفنه.

– بركاتك يا شيخة فريدة.

قالتها إحدى أخواته والتفتت نحوي وهي تبتسم بتهكم، وأضافت:

– ما الحب إلا للحبيب الأول.

توجهت للمطبخ ووجدتها جالسة على أحد الكراسي تحتسي الشاي، فقلت:

– لا تهتمي بكلامهم، لن يفهموا معنى العلاقة التي بينكما.

– هل تعتقدين أن الحب لا ينتهي على الرغم من كل ما مرّ به؟ يبدو أننا نجهل أنفسنا، وتظل الحياة تتقاذفنا إلى أن نصل ليقين نكمل به المسافة المتبقية منّا.

– الحب هو الشيء الوحيد الذي لا يخضع لإيديولوجيا، وقد يكون هو اليقين الذي تقصدينه.

تركتها وصعدت إلى الطابق الثاني، حيث كانت الغرفة التي ضمّت بعضًا من أيامنا الماضية، كان قد شغلها نائل بمزيد من الكتب الدينية، وغيّر أثاثها القديم، لكن رائحتها الأصلية ظلت ثابتة، بل التصقت بالستائر والطلاء الجديد.

يبقى القديم مسيطرًا في كل شيء، وحبّنا الذي أبحث عنه هنا بين جدران هذه الغرفة لم يَعُد موجودًا، والحياة أيضًا ليست كما كنت أراها من هذه النافذة.

هذا المنزل الذي كان هاجسي قد فقد معناه عندي، يقولون لو أنك تريد نسيان شيء ما، عُد إليه بعد فترة من الزمن، ستجد أن إحساسك قد تغيّر نحوه، وأنه ليس بتلك الصورة التي كنت تراه بها في الماضي.

صعدت ابنة عمتي خلفي، وقالت:

– أعتقد أنكِ جائعة، هذا خمير وشاي.

وبصوت واهن سألتني، وبقايا الدموع في عينيها:

– هل ظل حبّك له حتى بعد انفصالكما؟

قلت:

– لم أحب غيره.. أتعرفين لماذا؟ لأنه ارتبط بعالمي الخيالي الذي لم يكن سوى أحلام لا مكان لها على أرض الواقع، عالم كنت قد أنشأته منذ اللحظات الأولى معه، أمّا ما حدث فيما بعد فكان واقعًا غير حقيقي تاه عن مساره، وجميعنا لم نفهم كيف نتعامل معه.

– لم يحب غيرك أبدًا، لكني كنت أتفهم صعوبة استمراركما معًا.

– هناك نوع مختلف من الحب، ليس ذلك الحب المُسيَّج بالأُلفة والعادة، وهذا ما كان يشعر به أخوك، فدخلت حياتنا مرحلة التجميد، ولم يستجب لأية محاولات لإنعاشه.

أنتِ وفريدة مثلًا رغم انفصالكما ظل حبّكما واقعًا، وها هي فريدة الآن تحوم حوله من جديد، تحاول أن تجد فيه شيئًا قابلًا للإنعاش. أمّا أنتِ فلا خيار لديك، لأنه قد تزوج عليك لينجب أطفالًا، وظننت في لحظة أنك ستتقبلين أن يشاركك أحد حبّك وحياتك معه.

– مثلما قلتِ، ظننتُ أني سأتقبل، لكني حين وجدته وقد أخذ جانبها وبدأ بنسياني بعد أن أنجبت له، لم أحتمل.

– الحب طائر كلما أطلقته عاد إليك من جديد، وقد يعود إليك حقًا، لكن بمشاعر أخرى مع إنسان آخر.

قاطعنا صوت بكاء، فنزلت لأرى من ارتفع نشيجها، لم تكن عمتي، أو إحدى أخواته، بل كانت فريدة، لم أرَ دموعها من فترة، لكنها الآن تسكبها بقوة.

جلست بقربها واحتضنتها، وسألتها:

– هل حقا تبكين شقيق نائل؟

– بل أبكي نائلًا.

– ماذا حدث؟ صلّي على النبي.

– اقترب نائل مني كثيرًا لدرجة أني لم أعرفه، كان هشًّا، وكل ما هو عليه اليوم مجرد قشرة يختبئ تحتها من نفسه.

– ما مرّ بنا لم يكن سهلًا، أصبحنا نبحث عن شيء نتحصّن به تحسبًا لما سيحدث، وليس مما حدث.. لا نستطيع أن نظل كما كنا يا فريدة، وأنت بالذات قد تغيرت كثيرًا.

– وصل نائل إلى يقينه الخاص، فوجد في تديُّنه بهذا الشكل حصنًا وأمانًا، دفن نفسه وحياته خوفًا من مواجهتها، وما أبكاني أنه أيضًا أهال التراب على ذكرياتنا.

– ما فائدتها؟ لقد كانت رؤوس أحلام لم تكتمل، وقد مررت بها ونحن في الطريق فتساقطت كلها ونحن نعبر تلك المسافة المحمّلة بتاريخنا وبنعش زوجي الذي جاء يومًا ليعانقنا بوطن كامل.

لا تيأسي يا فريدة! لا بُد أن نبدأ من جديد.. هل كنتِ تأملين أن يعود إليك؟

نظرت باستنكار لسؤالي وقالت:

– لقد أدمن ما هو فيه، واعتاد الوحدة، يصوم يومًا ويفطر آخر، يقوم الليل ويصحو الفجر، لن يحتاج امرأة بجانبه، وبكائي هذا محطتي الأخيرة لأتخلص من متعلقات الماضي، ونائل قد اغتيل ذاك اليوم، كما انتهى أبو أولادي بعد حرب 94.

حُمِل النعش، وفُتِح باب المنزل، وعلت الأصوات بالتكبير، ومرّوا من تحت النافذة التي وقفنا أمامها لنرسل النظرة الأخيرة على جثمان الرجل المغطى بهزائمنا، وتساقطت دموعي لأول مرة منذ أن جاءني خبر وفاته، دموع حارة ومؤلمة، ليست لوداعه فقط، بل كانت وداعًا للعائلة والوطن، وداعًا لأهل ظننت أني فزت بهم بعد زواجنا، وهم اليوم يهيلون عليّ التراب معه، لنكون ذكرى الدم والوطن الذي كان واحدًا.

انفضّ الجميع، وذهب كلٌ إلى حاله، وغادرت فريدة بعد أن طلبت مني أن أذهب معها إلى بيتها، كما طلبت ذلك من إخوتي، لكننا لم نكن مستعدين للبقاء خوفًا من أي ظرف يسبب غلق طريق العودة، وقد تتصاعد الأحداث بين الشطرين لحرب نخسر فيها جميعًا ما بقي منّا.

عاد أخواي بعد الدفن ليركبا السيارة مباشرة، منتظرين خروجي، ودون أن أسلّم على أحد، احتضنت للمرة الأخيرة أركان هذا المنزل، وحاولت أن أُبقي ذكرياته الجميلة فقط.. وأنسى الوجع الأخير.